الإسلام

ماضيه وحاضره

بقلم

عبد الباقي سرور نعيم

من علماء الأزهر الشريف

الطبعة الأولى

سنة ١٣٤٣

مطبعة جريدة (الصباح) بمصر

الاسلام
ماضيه وحاضره

بقلم

عبد الباقي سرور نعيم

من علماء الازهر الشريف



الطبعة الاولى

سنة ١٣٤٣

مطبعة جريدة الصباح بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله رب العالمـين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . اياك نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين انعمت عايهم غـير المغضوب عليهم ولا الضالين .

النهضة الاسلامية الحاضرة

شغل البحث فيما بات اليوم أمراً واقعا (من نهوض المسلمين) رجال الفكر فى أوروبا وقادة السياسة فى الغرب واختلف رأيهم فى تلك المسألة لاختلاف وجهة النظر، وتنوع حكمهم لتنوع طرق التفكير واختلاف مناهج البحث : فمن ذاهب الى أن منشأ التطورات الخطيرة التى ترى اليوم فى البلاد الاسلامية - يرجع الى ضغط أوروبا ومسارعة رجال السياسة فيها الى تنفيذ فكرة القضاء على الحكومات الاسلامية المستقلة ، وتعطيل نمو الحركات الاستقلالية فى البلاد الاسلامية التى تخضع لنفوذ أوربا وتشرف عليها الرقابة الفعلية لحكومات الغرب . ويرى أصحاب هذا الرأى انه لولا ذلك الضغط لما كان للنهضة الحاضرة أثر ولا لتلك التطورات وجود . ومن رأيهم أن أوروبا لو تخلت عن سياسة الشدة وعدلت عن خطة الحزم التى تنفذها اليوم بدقة فى البلاد الاسلامية لقضت على مناشيء نهضة المسلمين

الحاضرة واجتثت أصول التطور الذى ان تركته فى حالة النمو الحاضرة فسوف تتبدل طبيعته لامحالة . ويصبح انقلابا خطير الشأن فى طبيعته وخصائصه، وفى مبدأه وغايته . وفى نتائجه وآثاره ومتى تم اكتمال هذا التطور فسيصبح من المستحيل على رجال الغرب تلافى خطره ومقاومة نتائجه وتعطيل آثاره : شأن التطورات اذا اكتملت وسنة الانقلاب متى استوفى خصائصه

***

ومن قائل ان أسباب تلك النهضة الحاضرة ترجع الى ماانتشره ولسن من مبادئه الحديثة وبثه من تعاليمه المتعلقة بحرية المصير واستقلال الامم . ويرى أنصار هذا الرأى انه يمكن تعطيل تلك النهضة بترضية بعض الامم الاسلامية ترضية تقسم السياسة فيها مبدأ حرية المصير مع المطالبين به ، فتعترف بجزء من المبدأ . وتتنازل الامم عن الجزء الآخر . وبذلك تزول أسباب النهضة وتجتث اصولها اجتثاثا لا رجعة بعده . من أجل ذلك نشأت فكرة المفاوضات

والتجأت السياسة الى عقد المؤتمرات على أمل أن تنال من الامم فيها مالم تنله بالسيف والمدفع، وتصل اليه بالنار والحديد

ولقد اختصت السياسة بعض الامم بهذا النوع من المخاتلة . واختصت البعض الآخر بالنزول على حكمه حينما يئست من قهره فى ميادين الحرب . أو صيده فى ميادين السياسة، كما وقع فى الافغان وفى فارس، وابتدأ الغرب يعترف به فى المسألة التركية

وبذلك اضطربت سياسة فى معالجة المشاكل ولم تهتد الى خطة معينة ثابتة تلتزمها فيما تحاول ان تصل اليه من ضروب الحل لتلك المشاكل وصنوف التسوية التى تقترحها باستمرار لانهاء مشاكل الشرق

ولولا [illegible] فى الوقوف على الاسباب التى [illegible]

الى ضغط أوربا ونسبوها الى مبادىء ولسن لان لها أسبابا طبيعية أدت اليها، وارتبطت بها ارتباط الوسيلة بالغاية والمقدمة بالنتيجة، كـكل التطورات التاريخيه والانقلابات العالمية :
ومنذا الذى يستطيع أن يحكم بان نهضة الاتراك مانشأت الا بعد حوادث الهدنة ؟ وفى التاريخ دلائل ترشد الى أن ما فى أنقرة اليوم ليس الا تتميما لحـركات سـابقة ونهضات متعاقبة نشأت عن عقائد راسخة. وآمال قوية نامية. ورغبات فى الحياة صادقة . وان كان لما وقع بعد الهدنة أثر فى تلك النهضة فهو محصور فى دائرة محدودة استطاع فيها أن يجعل التطور السابق انقلابا تاما فى مدة وجيزة له من النتـائج والآثار والخصائص والمميزات ما أدهش أوربا وجعلها تحتار فى تحديد ماهيته واكتناه أسبابه

ان تاريخ فارس يرشد الى أن حركتهـا اليوم اتصالا بحركاتها السابقة، وارتباطا بنهضاتها المتوالية . كذلك يرشد تاريخ الافغـان الى أن مالهـا اليوم من المطامع والآمال ودلائل النهوض والاكمال يتصل بتطوراتها الجيدة السابقة

وفى تاريخ مصر آيات تنبيء بأن تطورها الحالى مسبوق بنهضات متعاقبة ورغبات فى الاستقلال صادقة . وحركات هذا شأنها ينبغي أن يكون البحث فيها معقودا بالانصاف وقائما على الرغبة فى اكتناه الاسباب الحقيقية ، ولكن أبت السياسة الا أن تشوه طرق البحث ووسائط التفكير لتنشر حول الحقائق من الاوهام والاباطيل ما يحير الباحث ويضل به فى مباحث وهمية . ولا غرض لها من وراء ذلك سوى الوصول الى اقناع الناس بأن ما تراه من الحلول فى معالجة المشاكل الشرقية يجب أن يكون البحث فيه مقيدا بما رسمته من السبل ، وحددته من مسالك ، فهى صاحبة الحكم والهادية الى طرائق النظر ومنهج البحث ، فاليها يرجع الامر كله فى الحل والعقد ، والبحث والاستنتاج ، والحكم والتنفيذ

من أجل ذلك ينبغى للمفكرين من رجال الشرق أن لا يهتدوا بأحد من رجال السياسة ، ومن ينتسب اليها من رجال القلم ، فى شيء من المباحث التى تتعلق بشؤونهم وترتبط بمصيرهم وتنصب على النهوض فى بلادهم ، فما نشاهد

الحركات الا فى ديارهم، وما كان التطور الا فى مواقع أنظارهم فهم أعلم من غيرهم بطبائع العناصر التي أدت الى هذا التطور ونشأت عنها تلك النهضة وهم أدرى الناس بما أثر فيها من المؤثرات التي منها مايرجع الى الدين، ومنها مايرجع الى القومية

***

ولقد تنوعت طرق النشر فى أوربا وأحكمت مناهج التضليل فيها . وما راج التمويه وقلب الحقائق فى عصر من العصور كما راج فى هذا العصر : وما رأى التاريخ ولا سمع بنو آدم أن حكومة متمدنة قد انشأت للتضليل دوائر خاصة وميزانيات وافية، ومكاتب ضخمة ، وأقلاما مختارة، وصحفا متعددة، وكتابا وشعراء ومؤلفين وفلاسفة، وما الى ذلك مما اصطلح على تسميته فى بعض الدول بمصلحة النشر ، كما أنشأت له دول أوربا الحاضرة وحكوماتها المتمدنة

وما أنشئت تلك الدوائر الا لتسميم العقول وتضليل المدارك وتعمية السبل على المنصف حتى لا يهتدى طالب الحقيقة إن وجد، وحتى يخلو أمامها الجو فتتولى رسم مناهج

البحث للباحثين ووضع طرق التفكير وحدود النظر للناظرين فتتولى ارشاد العقول فى الشرق كما تولت ارشاد حكوماته ورجال الحل والعقد فيه لتستطيع نشر نفوذها على البلاد وما فيها ، وعلى العقول وما يجول بها ، ولتقطع على الآملين آمالهم ، وتساعد القانطين على اليأس من النهوض بأممهم . طمعاً منها فى أن يلتقى نظر الفئتين عند نقطة واحدة هى اليأس من النجاح (والعياذ بالله) يأساً يستوى فيه القانط والمؤمل والراجى واليائس ، لان البحث قد وصل بالعقول الى ألا أمل فى النهوض ولا رجاء فى الحياة . ذلك هو ظن أوربا الذى ظنته فى الشرق ونهضته فقادها لسلوك هذا السبيل وانتهاج هذا المنهج

فى البلاد الاسلامية نهضة عالجتها أوروبا بما فى استطاعتها من صنوف العلاج الممكنة . عالجتها بالشدة وعالجتها باللين . فما فازت ولا نجحت . ولو أنها كانت نهضة مصطنعة وغير متصلة بأسباب مكينة راسخة لما استطاعت أن تقاوم ضغط أوروبا ولما تمكنت أن تنجو من دسائسها

وتخلص من حبالها. ولا ريب أن نجاحها فى تلك المقاومة يدل
دلالة بينة على أن لها كيانا ثابت الدعائم . وأن فيها حيوية
غير قابلة للتلاشى والاضمحلال ، وأن بها من الخصائص
والمميزات مايصلح لمقاومة أى ضغط يناله واعتداء يقع عليه.
أمارات ودلائل ترشد الى أن لنهضة المسلمين فى الوقت
الحاضر ما لكل نهضة ناجحة من خصائص الحياة ومميزات
البقاء ودلائل النمو . ونهضة على مثل تلك الصفة لا يمكن
العقل البشرى أن يتصور أنها مانشأت الا بعد الهدنة وما
كانت الا من آثار ماانتشر فى العالم من مبادىء ولسن، وما
عقب الحرب العامة من الاضطرابات التى تناولت كثيراً
من أمم الارض وشعوب العالم . ومهما يكن من الامر فان
من المسلم به لدى كل باحث، منصفاً كان أو غير منصف، شرقيا
كان أو غربيا، سياسيا كان أو اجتماعيا، أن فى العالم الاسلامى
نهضة . وأن ما كان به من تطور قد نما نمواً خطير الشأن
فى بعض الجهات ، ودخل فى دور الاكتمال فى بعض آخر
وأن خصائصه فى كل جهة متشابهة وآثاره متماثلة . واتحاد

الخصائص يدل على اتحاد ماهية الحركة. وتماثل الآثار ينبيء باتحاد المنشأ. فهل تتحد تلك الحركات يوما من الايام اتحاداً عملياً يشمل جميع انحاء العالم الاسلامي، فيأخذ الناجح فيه بيد أخيه الذي يسعى للنجاح، ويصبح الجميع اخوانا يتعاونون على الخلاص ويعملون لتحرير بلادهم من كل سلطة أجنبية؟

وهل يسترد المسلمون سيرتهم الاولى ويسترجعون مكانتهم السابقة؟ وهل اذا نجوا من ضغط أوروبا ودسائسها يقدر لهم أيضا أن ينجوا من خطر القومية التي ساعدت سياسة الاستعمار على نشرها بين بعض أمم المشرق؟ وهل يستطيع رجال النهضة الحاضرة أن يوفقوا بين ما تقتضيه الاخوة الدينية وبين ما تتطلبه [illegible] القومية. فيحولوا اخوتهم الدينية الى [illegible] يتقاضى جعبة من الامم متوحدة في الدين والغاية و[illegible] [illegible] القومية نصيبا في الحياة ويفوز الاسلام بمطلبه في الوجود؟ وفي حركة الهند ما يدل على انه يمكن التوفيق بين فكرة الاخوة الاسلامية وبين الفكرة القومية. وفي موقف [illegible] حيال حركة الهند

الاسلامية القومية وحركة مصر الوطنية آيات ، براهين على أن ما كانت السياسة تذيعه من أن أوروبا تستطيع أنصاف الحركات القومية، ولكنها لا تستطيع أن ترى أية حركة اسلامية ، خيال زائل ووهم باطل. فلقد اتحد موقف أوروبا حيال الحركتين على سواء ، فما أنصفت مصر لانها قامت بحركة قومية ، ولا غضبت على الهند لانها تدين بفكرة اسلامية. ولقد قمعت بريطانيا كلتا الحركتين بقذائف متساوية فما رأفت بمصر لان بها حركة وطنية، ولا قست على الهند لان فيها حركة دينية بل تساوت سياسة القمع فى مصر وفى الهند ثم تشابهت فيهما سياسة السجن واتحد موقف أوربا حيال الاثنتين اتحد موقف الصحافة ، واتحد موقف الاندية السياسية واتحد اتجاه نظر الخالسين فى المؤتمرات المتعدده. فما عطف أحد منهم على الحركة الوطنية لانها وطنية ، ولا قسا قاس منهم فى حكمه على الحركة الدينية لانها دينية ، بل اتجه نظر الجميع لتنفيذ المقاصد الاستعمارية باللين تارة ، وبالشدة تارة أخرى ، بدون التفات الى صفة الحركة

وميزاتها الظاهرة . كل ذلك يدل على ان تخوف قصار النظر من اصطباغ أى حركة فى الشرق بالصبغة الدينية، وتوهمهم أن أوربا سيختلف حكمها لاختلاف اوصاف الحركات : المشرق ضلالاً حل بعقولهم من وراء الانخداع بما نشره ساسة الغرب، وبثته دوائر التمويه فى أوربا

ولعل ما كشفته لنا الحوادث من عدم تحقق المخاوف التي كنا نتوهمها ، والتي خدعنا بها زمناً غير قليل، يرفع عن أبصارنا غشاوة الجهل . ويهدينا الى سواء السبيل فى تفهم الحوادث، ويحول بيننا وبين قبول الانخداع مرة ثانية . ففيما مضى عبرة وفيما هو واقع بيننا اليوم عظة . وعسى أن يكون لنا من تلك التجارب هاد ومرشد . ومن تلك الاختبارات واعظ ومزدجر فلا نكون فتنة للغرب ومحل اختبار وتجربة لاوربا، كما هدانا الله الى ذلك فى قوله (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم)

ان نهضة المسلمين من المسائل التى وضعت اليوم تحت

البحث فى الدوائر السياسية وبين يدى الكتاب والمفكرين فى أوربا وفى الشرق. فهل يمكن وضعها عمليا بين يدى التنفيذ وتحت نظر العاملين، فيكون للباحثين من نجاحها فى التطبيق ما يبرهن على أن ما تخيلوه من عدم نجاحها وهم باطل وخيال زائل. وتكون خيبتهم خيال نجاحها كخيبتهم خيال نجاح البلشفية فى روسيا، مع ما بذله خصومها لسوقها وتعطيل نموها؟. على أن ماقاله ساسة الاستعمار بشأنها ونشروه من البحوث المتعلقة بأنها خيال لا يتحقق وضلال فى النظر سوف تخذله التجربة ويقضى عليه سير الاجتماع ويذيبه ضغط الحوادث وتمحوه طبائع الوجود البشرى ـ دعوة سياسية يراد نشرها لافساد أمر الاشتراكية وتنفير الناس منها وحملهم على الاقتناع بأنها أمر لا يتحقق وتصور يستحيل أن يوجد

فهل ترينا الايام نجاحا للحركة الاسلامية يقضى على جميع ما أذاعه المرجفون فى العالم ونشره المضللون من رجال السياسة وانتصر له بعض القانطين من ساسة المشرق

واقتنع به بعض ذوى الاغراض الشخصية من خدام الاستعمار فى البلاد الاسلامية ! !

*
* *

ان دوام الحركات الاسلامية التى تنمو اليوم وتترعرع فى كثير من أجزاء العالم الاسلامى معقود بوجود أساس تقام عليه دعائمها الاساسية، وذلك الاساس هو الدين الاسلامى الحنيف. لاتفاق الجميع على الايمان بتعاليمه والخضوع لأوامره ولان فيه من الوصايا المتعلقة بتكوين الامم والأوامر المختصة بتحديد غاية للجميع تهدى الى العمل وتقود للنجاح - ماهو كفيل بحفظ الحركات من التراجع، وحمايتها من الطوارىء، وصيانتها من التلاشى

وقد برهنت الحوادث على أن للعقائد الثابتة الأثر كل الأثر، والفضل كل الفضل فى تثبيت دعائم النهضة وتوطيد أسس التقدم وتمكين أسباب النجاح وفى العالم الاسلامى [illegible] ضمان وضمان بجعل نهضة المسلمين الحاضرة قائمة على عقائد ثابتة وأخلاق قوية وسمحة ومبادىء مكينة

فاضلة . وفى تاريخ الصدر الاول مايدل على أن سر نجاح المسلمين يرجع أولا وبالذات الى ما كان لهم من الاستمساك بالعقائد الدينية، فلقد وضعوا تعاليم الاسلام أمامهم كبرنامج للحياة وجعلوا اطاعة التعاليم الاسلامية فريضة مقدسة، فما دعا اليه الاسلام أجابوه وما أمر به أقاموه وما نهى عنه اجتنبوه ، دعاهم الى أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتحافظ على حدود الله وتجاهد فى سبيله بالمال والنفس، فكانوا عند ما دعاهم اليه : غاية واحدة وبرنامج واحد . استماتة فى سبيل المقصد . واستقتال لتنفيذ البرنامج . ايمانهم بالجهاد كايمانهم بالصلاة وسعيهم له كسعيهم اليها، ومحافظتهم عليه كمحافظتهم عليها، فما فرقوا بين ماجاء فى الصلاة وماجاء فى شؤون الحياة . آمنوا بالجميع وعملوا لتحقيق الجميع فاستقامت لهم شؤون الدين والدنيا وتم لهم ماوعد الله به فى كتابه اذ يقول (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى

لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً)

تحقق وعد الله للمسلمين يوم كان الاسلام اسلاماً والمسلمون مسلمين حقاً، فهل ترينا الايام ذلك الوعد وهو يتحقق للمسلمين مرة ثانية فيصبحوا خلفاء الارض ويبدل الله خوفهم فيها أمناً ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم فتحرر بلادهم ويستقلون فى شؤونهم ويستقيم لهم أمر الملك كما استقام لسلفهم وتضع المقادير أعنة الدنيا فى أيديهم مرة ثانية بعد أن انتزعتها منهم أحداث الدهر، وسلبتها يد الحدثان ؟؟

هل يكون المسلمين وحدة يتحقق لهم فيها محيط خاص تتشابه فيه جوانب الحياة : غاية واحدة وميول متماثلة وتصورات فى شؤون الحياة متشابهات، وآمال فى المستقبل غير متخاذلة . الههم واحد، وقانونهم فى الحياة واحد واتجاههم الى آله واحد وسعيهم نحو العلا وتطلعهم للسعادة ورغبتهم فى احراز المجد، كل اولئك متشابه غير متنافر ينتقل المسلم منهم من ناحية الى اخرى كما ينتقل فى غرف

المنزل الواحـد . عقائد وعبادات وآداب وعادات وآراء وميول وآمال كلها واحدة غير مختلفة ولا متخاذلة . كما قال نبيهم (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) وكما قال كتابهم (انمـا المؤمنون أخوة . ان هـذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) ؟؟

ان فيما نحـاول بحثـه فى الفصول الآتية ما يمكن أن يكون جوابا عن تلك الاسئلة . فلعل الله يهدينا الى سواء السبيل فيما نحاول بحثه ويوفقنا الى الصراط المستقيم فيما نريد تحليله والنظر فيه انه على كل شىء قدير

وحدة العقيدة وعلاقتها بالوحدة الاسلامية

ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . . ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

(*)

فى هاتين الآيتين اشارة الى ما يقرره سير الوجود

البشرى ، واتفق عليه الباحثون فى شؤون الاجتماع: من أن الامم لا تستطيع أن تحدث انقلابا فى سيرها فى الحياة الا اذا غيرت مالها من أفكار وما بنفوسها من أخلاق ، وما بمشاعرها من ميول . لان حالها فى الوجود تتغير تبعا لتغير مناشىء تلك الحالة ، وتختلف لاختلاف أسبابها: فللتقدم وسائل وللحياة أسباب وللتأخر علل وللموت مقتضيات

غير المسلمون ما كان لهم من وحدة دعا اليها القرآن ووضع أساسها العملى صاحب الشريعة ، وتمم بناءه خلفاؤه الراشدون ، واحتفظ بها من جاء بعدهم قرونا متطاولة تبدلت فى أواخرها حالة المسلمين العقلية والاخلاقية، فبدل الله ما كان لهم من عز أنتجته الوحدة . وغير لهم ما كان من شوكة أقامها الاتحاد على أمتن أساس وأرسخ قاعدة

عدت المذاهب التى تدعتها الفرق فيما يختص بالقضاء والقدر وفيما يرجع الى مسألة الامامة وفيما يتعلق بمسألة ى الله ورسوكل وفيما يرجع الى مسألة الصفات الخبرية والى بعض مسائل أخرى ألصقوا جميعها بالعقائد وألحقوها بعلم

الكلام ، عدت تلك المذاهب على وحدة الامم الاسلامية في العقيدة، فانحل ما كان لها من قوة وانفرط ما كان بها من نظام . ثم أهملت التعاليم التي حث عليها الكتاب فيما يتعلق باحياء العقائد الملية . وغرسها في النفوس غرسا يملأ القلوب خشية من الله . وتعظيما لاوامره واستشعارا لجلاله ورهبة من سطوته ورغبة في طاعته . وخوفا من انتقامه وحبا في نيل رضوانه . وما الى ذلك مما عرف المسلمون في صدر الاسلام مزيته فانتفعوا به انتفاعا أحيا العقائد في نفوسهم فنمت وترعرعت وأثمرت ثمراتها المعروفة

ولو أن هذا الاهمال كان غير مقترن بما أصاب العقيدة من وراء نشر تلك المذاهب المبتدعة لكان كافيا في اضعاف العقيده وجعلها تصورات علميه غير مؤثرة في المشاعر ولا مرتبطة بحياة القلوب ولا كافية للتأثير في سير الحياة. ولكن شاءت الاقدار أن تهمل التعاليم القرآنيه المختصة بتعليم العقائد كما شاءت أن تصاب وحدة العقيدة بانتشار تلك المذاهب التي مزقت عقيدة الامة ونالت من وحدة العقيدة

ان القرآن لا يزال غضا طريا ، واحترام المسلمين له
لم ينقص ولم يتبدل ، وقد دعا في غير ما آية الى وحدة العقيدة
والى الاعتصام بحبل الله والى عدم التفرق ، وفيه من
التعاليم ما يكفي لتحديد العقيدة ولاثباتها ولاقامة الدلائل
الكونية التي لا تتبدل أبد الدهر على صحتها ، فلا حاجة
للمسلمين ، ما داموا يريدون الاهتداء بكتاب الله ، الى تلك
المذاهب التي فرقت دينهم وجعلتهم شيعاً ، وأضعفت أهم
العقائد تأثيراً في [illegible] ، كمسألة القضاء
والقدر ، ومسألة الامامة ومسألة التوكل

حكمته ولا فى رحمته ولا فى مسائل السمع والبصر والكلام.
وما كان اختلاف تلك الفرق الا فى مسائل ألصقوها بالعقائد
وهى ليست من الاسلام فى شىء، فلننبذها اليوم ظهريا. وفى
كتاب الله غنى عن كل ذلك. وما دامت العقائد الاساسية
موضع اتفاق ومحل اجماع فلتكن هى معقد وحدة الامة
ولنترك مواضع الشقاق اليوم جانبا. وان أردنا فهمها والبحث
فيها ففيما ورد فى القرآن بشأنها مافيه غناء وكفاية. ومادامت
حاجة المسلمين اليوم تتطلب الوحدة، وتقتضى نبذ الخلاف
فما علينا من ضرر اذا تركنا كل ما حدث بعد القرن الثالث
وحصرنا ايماننا فيما ورد فى كتاب الله لانه هو المعصوم
فى المسائل الاعتقادية ولنترك آراء الرجال جملة

فلقد مضت حياة المسلمين فى عهد الرسول وفى عهد
الخلفاء الراشدين، وهى خالية من تلك المذاهب، منزهة عن
تلك البدع. ولا [illegible] نطمع فى [illegible] [illegible] [illegible] الا رجوعا
من رحمة الله مالم نرجع الى زمانهم

اذ نبذت تلك المذاهب ورجع المسلمون الى القرآن وحده

فى تعاليم العقائد، تحققت لهم وحدة العقيدة . وكان لهم من انتهاج منهجه فى غرس العقائد وتثبيتها فى النفوس حياة عقلية تكون فيها أفكارهم وتصوراتهم حية مثمرة لها تأثير فى النفوس واتصال بالمشاعر وهيمنة على الاخلاق تهديهم الى العمل لما دعت اليه الشريعة من أعلاء كلمة الله والاستماتة فى سبيل تأييد دينه. وما انتصر المسلمون فى صدر الاسلام الا بقوة العقيدة ووحدتها . وما كانت قوة العقيدة الا من قوة التربية التى غرستها وأشرفت على نموها ووضعتها على حالة تضمن لها النمو والحياة المثمرة . وما كانت وحدتها الا لتوحد المصدر الذى اهتدت به الامة فى تكوين تلك العقيدة

كان القرآن بمنزلة القانون الاساسى لهم فى تكوين العقيدة. وما كان يمكن أحداً منهم أن يحيد عنه قيد شعرة وكان النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يقومون فى حياطته مقام القوة التنفيذية فى حياطة القانون الاساسى اليوم. من أجل ذلك نجد [illegible] بعيدة من خطر الانقسام ومن خطر التفكير [illegible] فى مجرى

الحياة: لا ابتداع فى العقيدة ولا اهمال فى تربيتها

فهل للمسلمين اليوم من عودة الى انتهاج هذا المنهج؟؟

هل لهم أن ينتفعوا بحوادث التاريخ وعبر الايام ومواعظ الدهر، فيعمدوا الى التزام خطة ناجحة فى توحيد العقيدة وفى تربيتها !؟ هل لهم أن يجددوا برنامجاً للعقيدة تقوم على صيانته قوة تحميه من الابتداع. وتحول بينه وبين خطر المذاهب الضارة. داخلية كانت أو خارجية؛ وهل لهم أن يضعوا نمطا للتربية على نظام ما دعا اليه القرآن يكون كفيلا بجعل تربية العقيدة قائمة على أساس يؤثر فى المدارك ويرتبط باعماق الحياة، فتكون لهم وحدة فى العقيدة، وتكون لهم عقيدة مؤثرة فى مجرى التاريخ ؟؟

ان أمامنا كتابا يهدى الى الرشد. وتاريخنا للرسول يبين كيف أمكن تحقيق ما دعا اليه القرآن على نظام عملى مثمر. وبين أيدينا سيرة للخلفاء الراشدين تحقق فيها شكل كامل للحياة الاسلامية طبقت فيه جميع التعاليم الاسلامية وفى ذلك آيات بينات على أن من الممكن تطبيق التعاليم

الاسلامية مرة ثانية . وان ماينشره ساسة الغرب الدساسون ويميل اليه القانطون من أهل المشرق: من أن لكل عصر مقتضيات، وان مقتضيات العصر الحاضر لا تسمح باعادة تلك التجربة مرة ثانية! خطة مدبرة ودعوة يراد بها نشر اليأس فى قلوب المسلمين وحملهم على القنوط من رحمة الله وجرهم الى انتهاج منهج فى الوجود يكونون فيه مذبذبين بين الغرب وبين الشرق: لاهم مسلمون يعملون بجميع ماورد فى الاسلام: ولاهم غربيون يدينون بجميع ماتدين به أوروبا من العقائد والاعمال وشؤون الحياة!! وفى ذلك من الخطر على الوحدة الاسلامية ما نشاهد آثاره اليوم من الاختلاف بين الطبقة [illegible] التى خدعتها خطة أوروبا، ولا نجاة من [illegible] ولا مخرج من ذلك المأزق الا بانتهاج منهج [illegible] فى تكوين عقلية [illegible] يكونون مسلمين [illegible] وخصائص تميزهم عن غيرهم [illegible] كل منها خصائصه

فهل للمسلمين أن يغيروا ما بهم حتى يغير الله حالتهم الحاضرة فيستخلفهم فى الارض ويمكن لهم دينهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ؟؟؟

المبادىء الاساسية للوحدة الاسلامية

بينا فى الفصل الماضى أن الوحدة الاسلامية تتوقف على توحيد العقيدة وعلى تكوينها تكوينا يجعلها منتجة فعالة . ونريد فى هذا الفصل أن نذكر جملة من المبادىء التى يتوقف عليها أمر تلك الوحدة وهى :

(١) احياء الاخوة الاسلامية

(٢) احياء الاهتداء بالقرآن (٣) تنظيم المعارف الاسلامية (٤) احياء فروض الكفايات (٥) حياة طاعة الامام (٦) تقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة (٧) القيام بفريضة الجهاد حسب أمر الشريعة

وسنتكلم على كل مبدأ منها على حسب هذا الترتيب

الاخوة الاسلامية

جاء فى سورة الحجرات: «انما المؤمنون اخوة» وجاء

في سورة التوبة « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » وجاء في سور الفتح « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار . رحماء بينهم » وقال صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله » رواه مسلم

وقال صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي وردت في هذا الشأن وهي تدل في جملتها [illegible] على أن الاسلام [illegible] أخاه [illegible] وليا [illegible] ولا [illegible] ولا

يسلمه . وان واجباً على كل مسلم أن يحيي في نفسه هـذا المبدأ ، وأن يعود نفسه القيام بما يطالبه به من الحقوق والواجبات فيؤديها لأخيه المسلم أينما وجد وحيثما كان، لا فرق بين من يساكنه في وطنه ومن هو مقيم في ناحية أخرى لان الاسـلام لا يعترف بحـدود القومية ولا بمقتضيات العصبية . وهو يقول بصريح العبارة: «ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»

لا جنسية في الاسـلام ، ولا قومية في نظر القرآن، لان الاسلام فوق حدود الاوطان وتخوم الاقطار . هو دين ماجاء الا ليوجـد بين المؤمنين رابطة تقوم مقـام رابطة الوطن، وينشيء بينهم عصبية تحل محل التعصب للجنس ، يريد أن يكون لهم محيطاً تتوحد فيه العقائد والاخلاق وجميع الانظمة السياسية والمالية والادارية وحدة التعامل، ويقيم لهم من هذا المحيط وطناً [illegible] ويتعصبون لمن يسكن فيه، فحدود الاسلام هي حدود الوطن لديهم، وكل

ما احتوت عليه تلك الحدود فهو من المناطق التي يجب عليهم حمايتها ودفع العدو عنها ، ووضع أرواحهم على أكفهم، وأموالهم بين أيديهم لصيانتها والذود عن أعلامها ومعالمها. بذلك تقضى الشريعة الاسلامية ، وعلى ذلك درج المسلمون الاولون والسلف الصالحون رضوان الله عليهم أجمعين

ان الاخوة الاسلامية من الاخلاق التي تأصلت منابتها بين المسلمين حتى أصبحت خلقا يشبه الاخلاق الموروثة [illegible] الولد عن أبيه و[illegible] من الاوساط التي يعيش فيها وكان الاجداد والآباء والعلماء والوعاظ والكتاب والشعراء والامراء دعاية قوية لهذا المبدأ وتكوين هذا الخلق وتنظيمه حتى يصبح [illegible] تأدية غايته التي يريدها لها الاسلام

كان [illegible] [illegible] الاخوة في دروسهم ومجالسهم [illegible] [illegible] الى ذلك الكتاب [illegible] الاسوة الحسنة، ومن الواجب على العلماء الاقتداء به . فكم دعا الى الاخوة وكم عمل لها وكم أزال

العراقيل من سبيلها!. ولم يزل عليه أفضل الصلاة وأتم السلام حتى بينها بالقول فى خطبه وأحاديثه، وحددها بالعمل فى أنظمته وتراتيبه، واقتدى به الخلفاء الراشدون فكانت عنايتهم بالوحدة لا تكاد تقف عند حد، ودرج على ذلك من جاء بعدهم. وكان المسلمون يدينون بهذا المبدأ قولا وعملا. فأموالهم تنفق فى سبيل حماية الحدود الاسلامية لا فرق بين ما كان منها بأقصى المشرق وما كان منها بأقصى المغرب، وكانت أرواحهم تباع فى سبيل الذود عن حياض الملة وكفالة الأخوة الاسلامية لا فرق بين ما كان منها بأقصى الجنوب وما كان منها بأقصى الشمال؛ لأن الاسلام وطن الجميع والمسلمين جميعا أخوة والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، على كل منهم أن ينصر أخاه وأن يدافع عنه، وأن يعمل لتمكينه فى الارض وحماية ماله ونفسه وجعله فى مأمن على استقلاله وحريته. ذلك شأنهم يوم كان الاسلام اسلاما، والمسلمون مسلمين

حقا كان للعلماء عناية باحياء هذا المبدأ فما قرأنا كتابا من كتب الصحاح أو السنن أو المسانيد الا وجدنا فيه أبوابا

يدون فيها ماروى عن صاحب الشريعة من الامر بالاتحاد ومن النهى عن التفرق وما الى ذلك مما يرجع الى احياء مبدأ الاخوة بين المسلمين بعضهم مع بعض. وما دونوها فى الكتب وذكروها فى المصنفات الا لحفظ ما ورد عن صاحب الشريعة، وحمل الناس على العمل به لانه من سنن نبيهم القيمة. حقا انهم مادونوه للتبرك وما كان جمعهم له لمجرد التبرك بما قاله صاحب الشريعة لان تلك الفكرة لم تكن موجودة فى عصر العمل بالشريعة، وانما وجدت بعد ان ذهب العلماء وخلف من بعدهم خلف يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا، وان يأتهم عرض مثله يأخذوه. الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب الا يقولون على الله الا الحق ودرسوا ما فيه. والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا يعقلون

فهم العلماء فى صدر الاسلام كلام الله وكلام رسوله وعرفوا مرامهما وادركوا مقاصدهما حق الادراك ثم عرفوا وظيفتهم التى أمرتهم بها الشريعة ورغبوا رغبة صحيحة فى القيام بها كاملة فجمعوا بين العلم والعمل فاستقامت لهم أمور

الدين والدنيا وفازوا بسعادة الدارين :أولئك سيرحمهم الله عرفوا أن الاسلام اذا خاطب،خاطب الامة الاسلامية لافرق بين أمره ونهيه،وأدركوا ان ذلك منه اشارة الى أن الامة هى المكلفة وهى المطالبة وهى المأمورة وهى المنهية وانها متى دعيت أجابت اذا توفرت شروط الدعوة .عرفوا ذلك وعرفوا أن عليهم ان يبينوا الناس،أن يهدوهم الى الصراط السوى

فتوجهوا لاحياء الامم وتنبيه الشعوب وتركوا دوائر الامراء جانباً لعلمهم أن الامة متى علمت ومتى تنبهت فسوف تجبر الامراء على أن يقفوا عند ماحددته الشريعة وطالبهم به الكتاب ،وكان لهم من [illegible] مؤتمرات دائمة ووجد، أن الشريعة أغنتهم عن التفكر فى الوسائل . فما عليهم [illegible] فقد أمرت الشريعة [illegible] بأن يتوجه الى الصلاة [illegible] أن يطيع [illegible]

[illegible]

على أساس ثابت لا يتزعزع . وذلك كحضور المسلمين للصلاة واجتماعهم في المسجد وشهودهم للجماعة واجتماعهم للجمعة . عرف العلماء مقدار ما عملته الشريعة من التسهيلات لجمع الناس وحشدهم لهم، فكأنها أعطتهم سلطانا يفوق سلطان الملوك . لان سلطان الملوك مهما عظم فهو غير نافذ الى القلوب ولا واصل الى المشاعر . أما سلطان العلماء فهو على القلوب وعلى الاجسام . سلطة عرفها العلماء في صدر الاسلام فانتفعوا بها ، وكانوا كل شيء في الدولة وفي الامة

وما عرف التاريخ سلطانا تخضع له الناس بغير مال ولا جند ، وبغير سيف ولا مدفع ، وبغير رغبة ولا رهبة سوى سلطان العلماء في صدر الاسلام ؛ كانوا كالقوة التشريعية التي تخضع لها أوربا اليوم وكان لهم فوق ذلك الاستفتاء في العقائد والعبادات وسائر فروع الحياة؛ فكانوا مرجع الامة في كل شيء وكانوا مرجع الولاة في كل أمر ، لذلك ترى أمراء يعصم شأنهم عندهم أجرا عظيما اذا سموا و يهددهم بأقوى عذاب اذا أسرفوا أو قصروا في امور الايمان او تركوا الامانة

فى جهالة

من هنا يمكن الباحث فى تاريخ الاسلام أن يفهم وظيفة المساجد وما كان لها من التأثير فى حياة الامة الاسلامية يوم كان العلماء علماء ومتى قارن بين وظيفتها فيما مضى وبين وظيفتها اليوم تبين له حال العلماء فى الصدر الاول وحالهم فى الايام الاخيرة، وأدرك معنى قوله تعالى « وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا» « فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا »

توجهت عناية العلماء فيما مضى لتعليم الامة ما ورد فى الشريعة وتنبيههم الى ما دعت اليه وكان للواجبات درجات عندهم، وكان أهم تلك الواجبات أمر الوحدة الاسلامية، لان القرآن مملوء بالدعوة الى الوحدة وبالنهى عن التفرق لان سيرة الرسول كانت دائمة على تنظيم أمر الوحدة وعلى لم شمل الجماعة، ولان طبيعة الاسلام قائمة على أن يكون المسلم أخا للمسلم، لانه وحدت جميع الحقوق وساوت بين أفراد الامة

في جميع الواجبات، فما فضلت أحداً على أحد وما جعلت لفرد ميزة على فرد بل جعلت الكل اخواناً وهيأتهم لغرض واحد: هو اعلاء كلمة الله

ان اعلاء كلمة الله غاية الديانة الاسلامية، ولا يكون هذا القصد ولا تتحقق هذه الغاية الا بالوحدة، فعليها يتوقف نجاح الاسلام

من أجل ذلك اهتمت بها الشريعة أيما اهتمام. اهتم بها الكتاب، واهتمت بها السنة، واهتم بها الخلفاء الراشدون، واهتم بها العلماء المهديون. وما كانت المنابر الا وسيلة من وسائل الدعوة الى الاتحاد. ما كانت الا لحث جماهير الامة على الغاء فوارق ونبذ العصبية [illegible] الامتياز [illegible] تتحقق [illegible] وكان للوعظ [illegible] بتلك الاخوة وكان [illegible]

رمز لمعنى الوحدة ؟ وهل وجبت طاعة لامام الا لتحقيق ذلك المبدأ؟وما كانت طاعته مفروضة على فرد الا لنفع الفرقة وتنظيم أمر الجماعة . الخلافة واحدة ليتحد مصدر السلطة والكتاب واحد ليتحد مصدر التشريع والمساجد واحدة لتتحد أمكنة العبادة وحدود الله واحدة ليتساوى المسلمون فى المساواة تحقيق المعنى الوحدة حدود البلاد الاسلامية واحدة فى وجوب الدفاع عنها على كل مسلم اتماما للوحدة وابن السبيل أينما سار فهو يسير بين اخوته وأخواته وأينما حل يجد عادات تماثل عاداته وأنظمة تماثل أنظمته ومشاعر وادابا وآراء وتصورات فى الحياة تماثل ما لديه فلا يشعر بغربة ولا يحس أنه فى غير بيته

فهل يوجد نظام للوحدة كهذا النظام ؟وهل كان تشريع لتحقيق الاخوة يماثل هذا التشريع ؟

عمل المسلمون بما أمروا به فتحقق أمر الوحدة يوم كانوا مسلمين فكانت لهم وحدة تشابهت فيها جوانب الحياة ، ولذلك أبرزوا تلك الفكرة الى حيز الوجود فمن

يدعى أنها فكرة خيالية أو أنهـا غير قابلة للوجود أو أن مقتضيات العصر الحاضر لا تسمح بظهورها مرة ثانية، فهو محجوج بالتاريخ ، والتاريخ أعدل حاكم وأصدق ناطق

ولعل قائلا يقول : ان فى تحقيق الاخوة فى هذا العصر قضاء على فكرة القومية ومحوا لمعالم الوطنية، ثم هو فوق ذلك رجوع الى عصور مضت وأفكار بليت وهل الاخوة الاسلامية الا نوع من الامبراطورية ؟

ومقتضيات العصر الحاضر تنافر هذا المبدأ وآراء المدنية الجديدة لا تؤيد الا مبدأ القومية ، فان أوروبا ما ارتقت الا بعد أن قضت على فكرة الاخوة المسيحية ونبذت فكرة الامبراطورية المقدسة واعتنقت مبدأ القومية الناهض المنتج

ان الرجوع الى فكرة الاخوة الاسلامية رجوع الى نظام استبدادى لا أثر فيه للحرية ، نظام يجعل طبقة حاكمة وأخرى محكومة ، طبقة غالبة وأخرى مغلوبة ، طبقة سيدة وأخرى مسودة ، نظام ينتهى بحصر السلطة فى أيد خاصة تحت اسم الاخوة الاسلامية ان نظاما كهذا يناقض الاراء

الجديدة والمبادىء المستحدثة . وهو فى ذاته نظام رجعى لا يستطيع مماشاة المدنية الحاضرة

يمكن أن يقال ذلك باخلاص، وأن يصدر هذا القول من قوم مخلصين، ويمكن أن يقال بوحي أوربي ومن قوم متأثرين بالدسائس الاجنبية . وسواء أكان هذا أم ذاك فان جميع ماقيل فى هذا الايراد، وجاء فى هذا الاعتراض لاصلة له بمعنى الاخوة الاسلامية ولا ينطبق على مايقضى به ذلك المبدأ

المسلم أخو المسلم، وفوق ذلك بينهم موالاة ورحمة ومتى نظرنا الى هذا المبدأ والى ماأمرت به الشريعة من المساواة وعدم التفاضل . وخضوع الجميع لما جاء فى الشريعة لافرق بين الراعى والرعية والامام والمأموم والخليفة وأى فرد من أفراد الامة تبين أن مبدأ الاخوة ان تحقق تحققت معه أمة تتساوى أفرادها جميعا أمام شريعة واحدة شريعة تفوق جميع الشرائع فى انها خالية من السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ومن اعتبار القائمين بها فوق القانون . ولا أدل على ذلك

من قوله تعالى . « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين . ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلوا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً » « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل » « ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

وقوله صلى الله عليه وسلم « ليس لعربي فضل على عجمي ولا لعجمي فضل على عربي الا بتقوى الله » الى غير ذلك من الايات والاحاديث الدالة على أن المسلمين تتكافأ دماؤهم وأموالهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . فهم متساوون في الحقوق وفي الواجبات . وصالحون أمام الشريعة لتولية المناصب والعروج في معارج الرقي الاجتماعي . غاية الامر ان الائمة

الذى يترتب على تلك الاخوة ترتباً ظاهراً هو اشتراك الجميع فى الدفاع عن أى بلد اسلامى يراد احتلاله والقضاء على استقلاله ، فنتيجة تلك الاخوة كنتيجة التحالف الذى تصنعه السياسة الدولية اليوم . وكل ما فى الامر ان التحالف السياسى أثر من آثار توافق المصالح فى ظروف خاصة، فهو ضرورة وقتية . ولما كان الاسلام دينا يأمر جميع معتنقيه بأن تكون لهم غاية واحدة تجتمع حولها مقاصدهم العامة وكانت تلك الغاية دائمة، وكان دوامها سببا فى توحيد المصالح العامة باستمرار كانت نتيجة الاخوة الاسلامية، وهى التحالف على دفع العدو ، أمرا دائما غير منقطع وكانت مبنية على توحيد المصالح الدائم وكانت قائمة على تماثل المشاعر وتشابه الافكار. فما تلجأ اليه السياسة عند الضرورة أمر به الاسلام كقاعدة عامة للحياة الاسلامية . فهو تحالف فى دوائر الحكومة وتحالف فى المدارك وتحالف فى القلوب وتحالف فى مناشىء العبادة . تحالف موروث . تحالف يلحق بالامور الطبيعية فله خصائص الاخلاق الثابتة والطبائع المتأصلة فى النفوس

هو من الملكات اللاشعورية يحس به المسلم كما يحس بسائر الامور الوجدانية من الميل والنفور والجوع والعطش . نظام صنعه الاسلام ، فهو من صنع الله لا من صنع الدوائر السياسيه

واذا كان في مصر من يرى أن من الممكن الجمع بين الاستقلال التام وبين الاعتراف بالمصالح البريطانيه التي لا تنافي الاستقلال ، وأن من تلك المصالح عقد محالفة مبنية على المساواة ، اذا كان هذا غير ضار بالقومية ولا مؤثر في طبيعة الوطنية المصرية ، فلم لا يجوز أن يكون تحالف المسلمين تحالفا ناتجا عن الشعور بالاخوة غير ضار بالقومية ولا ماس بالوطنية فان معنى القومية هو شعور الانسان في بلده انه حر في ماله ونفسه متمتعا بجميع ماله من الحقوق واختصاصه في كل ذلك تم أمر القومية ولا يضرها بعد ذلك تحالف مع أمة حرة أو أمة تمثل شعبا آخر. والاخوة الاسلامية ليست أمرا وراء هذا التحالف وذلك الاتحاد.

فقد [illegible] على ضفاف

الدردنيل ؟ كانوا يقولون أنها سالت لدفع العدو المشترك ونصر القضية المشتركة . كان ذلك يقول الحلفاء يوم وضعوا أرواح أممهم وأموال شعوبهم بين يدى تلك القضية ليتم لهم النصر فهل كان ذلك حادثا غير طبيعى ؟ ما كان أمراً بدعا ولا حادثا شاذا . بل كان أمراً قضت بضرورة صنعه السياسة ثم زال الاتحاد لانه كان غير مؤسس على اتحاد القلوب والمدارك . لكن الاخوة الاسلامية دامت الى اليوم ، بيد أن أثرها كان مفقوداً بوضعها على نظام يجعلها فعالة ومنتجة . ولولا ماصنعه الامراء من التفريق . وما وجده العلماء من الاختلاف والتنابذ ، لكان للمسلمين اليوم تحالف حربى تذل أمامه أوربا وتخزى ؟

ان عظمة الامبراطورية البريطانية ما كانت الا من اليوم الذى وجدت فيه وحدة صناعية بين لندن وبين جميع المستعمرات الانجليزية

ولقد حاولت السياسة أن يكون لتلك الامبراطورية شبه وحدة فى العواطف والتصورات فما وجدت الى ذلك

سبيلا لأنها تريد وحدة قائمة على التفاضل من ناحية، وعلى أمم مختلفة في الدين والمنازع من ناحية أخرى. أما الاسلام فيستطيع أن يوجد الوحدة على قاعدة المساواة بين أمم متحدة في الدين والمشرب ومجرى الحياة العامة

توحدت ولايات أمريكا الشمالية فكان للجميع عظمة وشوكة، توحدت الولايات الالمانية، فكان لالمانيا حياة وصولة. وقد طمحت روسيا أخيرا لأن توجد بين أجزاء امبراطوريتها وحدة صناعية. آيات ودلائل تنبيء بأن اتحاد الممالك يمكن أن يكون، ولكنه لن يدوم الا اذا كان مبنيا على اتحاد القلوب والمدارك. فاذا تمكن المسلمون من ايجاد وحدة فسوف تكون دائمة لقيامها على قلوب متحدة وآراء متماثلة

كان للعلماء كل الأثر في نتائج الوحدة الاسلامية في صدر الاسلام، وكان عليهم أكبر الأثم في تفرق الممالك الاسلامية [illegible] اليوم بتوقف أمر الوحدة الاسلامية ويقيننا أنهم يعملون لذلك في دروسهم ومجالسهم في المساجد

وعلى المنابر. فى المصنفات وفى الجرائد. وأهم شىء يستطيعون به احياء تلك الوحدة هو الاهتداء بكتاب الله

احياء الاهتداء بكتاب الله

« ان هذا القرآن يهدى للتي هى أقوم — هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين — لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين — كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »

سئلت عائشة رضى الله عنها عن معنى قوله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) فقالت (كان خلقه القرآن). [illegible] جوابها اشارة الى [illegible] الكتاب

[illegible]

ربك ان الله كان بما تعملون خبيرا) الى غير ذلك من الآيات التى أمر فيها صلى الله عليه وسلم باتباع ما يوحى اليه، وجعله اماما يقتدى به، وقد فعل صلى الله عليه وسلم ما أمر به وقام بما طلب منه خير قيام، فتلا على الناس القرآن ورباهم تربية علمهم فيها الحكمة وزكاهم على حسب ما فصل فى الكتاب وبين فى القرآن. وجاء بعده أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فخلفوه فى الاهتداء بالكتاب فى جميع شؤون الحياة، وما وجدت حكومة عملت بالمساواة ونفذت نصوص الدين الا حكومة الخلفاء الراشدين، فلقد طبقت جميع ما جاء به الكتاب على شؤون الحياة تطبيقا يرضى الله ورسوله والمؤمنين والناس أجمعين

ان الاهتداء بالقرآن فى زمن الخلفاء الراشدين كان قاعدة الحياة ولما فتحوا الدنيا واتسعت أمامهم مطالب الحياة وانفسحت رقعة المملكة، ما احتاجوا وهم على تلك الصفة الى قانون سياسى موضوع ولا قانون مدنى مصنوع ولا قواعد السلوك والآداب مأخوذة من فلسفة البشر

وحكمة أهل النظر، فما ابتدعوا بدعة فى شؤون السياسة ولا فى أمور القضاء ولا في أى فرع من فروع الحياة، لانهم آمنوا بالله وبرسوله وآمنوا بالقرآن على أنه قانون الحياة وهداية فى شؤون الدين والدنيا، ورأوا من نصوصه وقواعده ما فيه الغناء والكفاية، أدركوا ألا حاجة تدعوهم الى الابتداع فى شؤون الدين أو مسائل الدنيا، وادركوا كذلك أن فى هذا الابتداع قضاء على روح التشريع الالهى وخروجا على تعاليم القرآن نفسه ورغبة فى وضع الهداية البشرية موضع الوحى الالهى ورمزا الى أن فى القرآن نقصا يجب تتميمه . وان فى السنة حاجة يجب تكميلها أدركوا ذلك جميعه فلزموا الاتباع وجانبوا الابتداع واكتفوا بهداية القرآن وارشاد السنة، فتم لهم ما وعد الله به المؤمنين من الاستخلاف فى الارض ومن تمكين الدين ومن الاستمتاع بلذة الحياة وهى الامن الشامل للارواح والاديان والاعراض كما قال الله فى كتابه « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من

قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا »

علم الصحابة رضوان الله عليهم ان قواعد التشريع يد الكتاب وحده وان السنة بيان لهذ الكتاب وأن اتباع الكتاب واجب واتباع السنة واجب وأن الابتداع منهى عنه وأن الابتداع المنهى عنه هو ما كان متعلقا بأمور الدين لانها مأخوذة من لسان الوحى فحسب أما الابتداع فى شئون الدنيا والتفنن فى طلب الملك والابتكار فيما يؤول الى اعزاز الله ورفع كلمة الله فهو مما يرضاه الله ويرضاه رسوله والى ذلك الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة [illegible] فعليه وزرها ووزر من [illegible] يوم القيامة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ومما لا يكاد يعقل أن يجتمع فى نصوص الشريعة المطهرة نهى عن الابتداع ، وأمر به فى شيء واحد

اذا ، فلا بد أن يكون النهى متعلقاً بجهة والحث مختصاً بجهة أخرى . وقد علم من استقراء النصوص الشرعية أن النهي عن الابتداع مقيد بامور الدين ، والحث على استئنان السنن ووضع الطرائق مقيد بشؤون الدنيا. فللمسلمين أن يبتكروا وضع طرق حسنة لتنظيم شكل الحكومة ولتدوين الدواوين . ولهم أن يسنوا سننا لاستثمار المناجم وتحصيل الثروة من وجوهها المشروعة . ولهم أن يبتكروا ماشاءوا من تنظيم الجيوش وتحضير الذخائر واتقان صنع الاسلحة واحكام قواعد الفن الحربى وتسهيل طرق المواصلات واحكام شؤونهم الخارجية . لهم أن يضعوا فى ذلك سننا وطرائق ، ومن سن منهم فى ذلك سنة حسنة قوية عظيمة الأثر ظاهرة النفع فله أجره وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، كما أن من سن منهم سنة سيئة فى تحصيل الجباية ووضع المكوس وشكل الحكومة واهمال الآلات الحربية

وتعطيل انتشار العلم وتمزيق الرابطة وضياع الثقة بين الشعوب الاسلامية وتفريق شمل الامة وتأخير صنعة من الصنائع واهمال شأن من شؤون الحياة ،فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة .

ولقد كان للصحابة عناية بابتكار الاساليب واستنان السنن فى شؤون القتال وفى اعلاء كلمة الله ،فغيروا قواعد التعبئة الحربية ووضعوا لها سنناً ، وأنشأوا للمواصلات طرائق ووضعوا لجباية الاموال أنظمة ولتنشيط الصنائع ونشر المعارف قوانين،فكانوا فى هذا العمل ممتثلين لما حثهم عليه صاحب الشريعة من وضع السنن الحسنة . ومع ذلك قد كانوا أحرص الناس على اجتناب ما نهى عنه صلى الله عليه وسلم من [illegible] فكانت صلاتهم كصلاته وزكاتهم [illegible] ما أحدثوا شكلا فى الصلاة [illegible] ولا [illegible] يكررونه [illegible] الوحى [illegible]

الشريعة من التبديل والتحريف، واستقام لهم الاهتداء بكتاب الله، لان أعظم الاشياء خطراً على الاهتداء هو الابتداع واشراك الهداية البشرية مع الهداية الالهية

ولو أن الصحابة أشركوا مع الهداية الالهية شيئاً قليلا من الهداية البشرية، لما أوجدوا تلك الحكومة العادلة، والشعب المجيد، والآثار الخالدة. رأوا أن في القرآن آيات تتعلق بالله وصفاته، وبالرسل وصفاتهم، وبالدار الآخرة وما فيها، فآمنوا بها كما وردت، ثم رأوا ما في القرآن من الادلة والبراهين الدالة على ثبوت تلك المعتقدات، فجعلوها قانونا للنظر، ومعياراً للاعتبار. وكانت في وضوحها وسهولة دلالتها صالحة لان تدركها عقول الجماهير كما تدركها عقول الخاصة، لانها هداية للكل، وارشاد لبني آدم على سواء

ا [illegible] القرآن من نص على المعتقدات [illegible]
الارشاد الى وجوه دلالة [illegible]
[illegible]
[illegible]

وراء تلك الحدود خروج على الدين وعلى العقل معاً ، فمضوا على تلك المعتقدات بالنواجذ ، وصرفوا عقولهم الى شؤون الحياة ومطالب المعيشة ، فخاضوا غمارها بعقول صافية غير مرتبكة ولا مشوشة ، فجاءوا بالعجائب والمدهشات ، ولو أن القرون المتأخرة سلكت مسلكهم فى المعتقدات لما وجد هذا التفرق ، ولما كانت تلك المذاهب ، ولما تحولت الامة الاسلامية عن الاهتداء بالقرآن فى أهم شيء يتوقف عليه النجاح فى الآخرة . وترتبط به الاستقامة فى شؤون الدنيا

فهل للمسلمين اليوم أن يتعظوا بتلك التجارب ، فيعودوا الى ما كان عليه سلفهم من الاهتداء بالقرآن فى العقائد التى تتعلق بالله وبالرسل وبالملائكة وبالكتب وبالدار الآخرة ، وأن يدركوا أن مسائل الغيب لا تؤخذ الا من طريق الوحى وأن يعلموا أن ما أرشد اليه القرآن من الدلائل هو آخر ما يمكن للعقل أن يصل اليه ؟ . وبذلك يشهد تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها الى اليوم . على المسلمين أن يتركوا

الاختلافات، أن يرجعوا الى ما كان عليه سلفهم، لتستقيم
لهم شؤون الحياة مرة ثانية؟ وما الذى استفدناه من الخلاف
فى أن الوجود عين الموجود أو غيره، أو أنه عينه فى الواجب
غيره فى الممكن . أو أنه أمر حقيقى أو انتزاعى؟ وما الذى
استفدناه من أن الاسم عين المسمى أو غيره، ومن أن
الصفات عين الذات أو غيرها، ومن أنها ممكنة أو واجبة؟
وما الذى استفدناه من أن علم الاله هل هو تفصيلى أو
اجمالى؟ ومن المباحث المتعلقة بالقدرة والارادة والكلام
والقدم الذاتى والزمانى؟ ما الذى استفدناه من ذلك ومن
غيره، وأى أثر لتلك المباحث يتعلق برضاء الله أو باستقامة
أمور الحياة؟ أما كفت تلك القرون لحل تلك المشاكل .
وإنهاء النزاع فيها؟ وهل علماؤنا لا يزالون يرون أن لا بد من
المرور بها لكل طالب علم، وراغب فى تثبيت عقيدة؟ إن
كانت دينية فمبنية فى نفسه كما وجدت، وإن كانت عقلية .
فإن كانت موضع حجج فهى لا تزيده خروجا عنها . وإن
كانت موضع خلاف فأى حاجة بها فى الاعتقاد الذى لا ينفع

فيها الا البرهان اليقيني !؟

حالت تلك المباحث بين المسلمين وبين الاهتداء بالقرآن في علم التوحيد ، وهو أهم العلوم لديهم . ولقد ضموا اليها مسألة القضاء والقدر ؟ والبسوا تلك المسألة لباساً دينيا من ناحية . ولباسا عقليا من ناحية أخرى ، ليزيدوها ارتباكا على ارتباك ، وتعقيداً على تعقيد !. يعرضونها أمام العقل ، ويضعونها في معرض البحث ، ثم يسدون على العقل طريقه! هل هي عقيدة ؟ ان كانت عقيدة فلماذا لم يهتدوا فيها بهدى القرآن ، ولم يسلكوا في الايمان بها وتطبيقها على شؤون الحياة ، وتطبيق شؤون الحياة عليها ، سبيل النبي ، وسبيل [illegible] الراشدين بعده ؟ وان كانت علمية صرفه ، وبحثا عقليا محضاً . [illegible] المسائل العقيدة ؟ ان كانت عقيدة [illegible] كانت مسألة جدلية [illegible]

[illegible]

هل للمسلمين اليوم أن يعتبروا المسألة دينية ؛ فيجمعوا ما ورد من القرآن بشأنها وما ورد في السنة ، ثم يأخذوا منه تحديد معنى القضاء والقدر ، بدون نظر الى ماقاله الاشعري أو الماتريدي أو المعتزلي ؟ فلقد آمن المسلمون بتلك العقيدة وانتفعوا بها في الحياة قبل أن يوجد علم الكلام ، وقبل أن توجد المذاهب الكلامية ، أما هل ينبغي أن تحدد العقائد تحديداً يزيل عنها اللبس والابهام ، ويرفع عنها الخلاف والتشويش ؟ واذا كان للاشعري رأيان في المسألة ، فكيف يجعل قول منهما قانونا لعقيدة تمس أهم شؤون الحياة؟ أما القرآن نص فيها : أما السنة بيان ؟ أيترك صاحب الشريعة تحديد عقيدة من العقائد ، ويهملها الى هذا الحد ؟ واذا كان له تحديد فهم النزاع ؟ واذا لم يكن فعلام الاعتقاد ؟؟ واذا كانت في [illegible] ظروف [illegible] واحد [illegible]

الى نزاع في [illegible]

الظروف [illegible]

[illegible]

فى القرآن ، فهو المعصوم وحده ، وهو مرجع العقيدة دون سواه

القرآن والاخلاق

فى القرآن آيات تتعلق بالاخلاق وبقواعد السلوك وللقرآن عناية بهذا النوع تكاد تستغرق أكثر ماورد فيه من الايات الكريمة . وقد أدرك ذلك المسلمون فى صدر الاسلام فاستمسكوا بها واعتبروها قانونا فى علاقاتهم الشخصية والاجتماعية ؛ وفيما بينهم وبين الله . فكانت بيوتهم مستمسكة بما ورد فى القرآن من الاوامر المتعلقة بالولد نحو والده . وبالوالد مع ولده ، وبالرجل مع زوجه ، وبالمؤمن مع أقاربه . وكانت أوساطهم مستمسكة بما ورد فيه من الاداب المتعلقة بالاخوة الاسلامية ، وبذل الجوار ، وباحترام ذوى الفضل وأهل العلم . وكان كل فرد منهم يرى أداءه من الواجبات ثمة يؤديها فى كل وقت وفى كل زمان : من صلاة وزكاة وحج ان استطاع ، وجهاد بالمال والنفس ، وتطبيق أعماله على ما [illegible] فى شؤون [illegible] خشية الله ملاحظا فى كل

عمل نصيبه فى الدار الاخرة، ومركزه يوم القيامة . وذلك روح التربية الدينية . وما استفادوا هذا الروح ، ولاشملتهم تلك التربية الا لانهم رغبوا فى الاهتداء بالقرآن ، وكانت آيات القرآن المتعلقة تلك الامور من الوضوح والجلاء بحيث لا تخفى على أحد ، وكان القرآن بين ايديهم جميعاً لانه قانون الحياة . وواجب التربية يقضى على كل فرد أن يعرف من قانون الحياة ما يستطيع به تأدية واجبه

فقد ورد فى الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وجملة الشريعة تقضى أن كل مكلف عليه أن يعلم ما كلف به ، حتى يؤديه على وجهه . من أجل ذلك فرض الاسلام على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم القدر الذى يخرج به من عهدة التكليف ، وبذلك كان المسلمون اسبق الامم الى تقرير التعليم الاجبارى . وكان اجباريا لان الدين أمر به ، ولان الحكومة الاسلامية مطالبة بتنفيذ هذا الامر ، ولان كل مسلم مطالب بأن يعد نفسه واولاده لتنفيذ هذا الامر ، وكان القرآن هو وحده امام الجميع وقدوة الكل .

لان ما فيه من الاوامر ، وخاصة ما تعلق منها بالاخلاق، لا يحتاج الى أى معلم . وقد تكفلت السنة الشريفة ببيان آيات الاحكام، ونقل هذا النوع بطريق التواتر، فكان علمه من نوع علم الكتاب فى الوضوح والجلاء وما أمر الناس بسؤال أهل الذكر الا فى المسائل الخفية التى تحتاج الى قوة استنباط تفوق قوة العامة لذلك كان الاهتداء بالقرآن قاعدة التربية الاسلامية فى القرون الاولى ، ومضى القرن الاول والثانى وليس للقرآن تفسير ، لانهم كانوا يعلمون عدم احتياجهم الى شرح أو تفسير ، ولما كانوا يخشونه من فتح باب الاختلاف فى الشرح والتأويل ، فاقتصروا على نصوصه واستغنوا بهدايته وهداية سنة الرسول صلى الله [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

المعروف ببحر القلزم ماراً الى سواحل اليمن كلها الى بحر
فارس الى منقطعه، ماراً الى الفرات، ثم على ضفة الفرات الى
منقطع الشام، الى بحر القلزم . وفى هذه الجزيرة من المدن
والقرى مالا يعرف عدده الا الله عزوجل، كاليمن والبحرين
وعمان ونجد وجبلى طى وبلاد مضر وربيعة وقضاعة والطائف
ومكة ، كلهم قد أسلم وبنوا المساجد ليس منها مدينة ولا
قرية ولا حلة لاعراب الا قد قرىء فيها القرآن فى الصلوات
وتعلمه الصبيان والرجال والنساء . ومات رسول الله صلى
الله عليه وسلم والمسلمون كذلك ليس بينهم اختلاف فى
شىء أصلا ، بل كلهم أمة واحدة ودين واحد ومقالة واحدة
ثم ولى ابو بكر سنتين وستة أشهر فغزا فارس والروم
وفتح اليمامة وزادت قراءة الناس القرآن
ثم مات أبو بكر وولى عمر وفتحت بلاد الفرس طولا
وعرضا وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر [illegible] ولم يبق
بلد الا بنيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف [illegible] وقرأ
الأئمة القرآن وتعلمه الصبيان فى المكاتب شرقا وغربا [illegible]

كذلك عشرة أعوام وأشهراً والمؤمنون كلهم لا اختلاف بينهم فى شىء، بل ملة واحدة، ومقالة واحدة. ثم ولى عثمان فزادت الفتوح واتسع الامر، فلو رام أحد احصاء مصاحف أهل الاسلام ماقدر »

من هنا يتضح لنا أن كل مسلم كان مطالبا بالنظر فى القرآن والاهتداء بما فيه. وللقرآن فى هداية النفوس تأثير لايمكن لغيره أن يغنى غناءه أو ينفع نفعه لانه كتاب الله، ولانه فى نهاية الوضوح، ولانه برىء من لوازم الكتب البشرية من الاختلاف والتناقض والنقص والسهو وعدم الاحاطة بالامور. وشتان ما بين الوحى الالهى والتفكير البشرى

أدرك المسلمون فى صدر الاسلام هذا المعنى فسلموا نفوسهم للقرآن يتصرف فيها بالتزكية، وتعليم الحكمة يحيون ما أحياه ويميتون ما أماته، كل منهم على بصيرة من أمره وعلى علم بما يفعل وما يترك. هذا هو السر فى حياة الامة العربية، وهى الامة الامية، تصعب التفوق الضائل

البعيد عن علم سنن الحياة

* * *

للمطبوعات فى هذا العصر الحاضر تأثير عجيب فى نهضة المدنية الحديثة . وكان للقرآن فى صدر الاسلام كل الاثر فى نهضة الامة الاسلامية ؛ يتدارسه كل مسلم ، ويهتدى به كل مؤمن ، ويسير فى الحياة على مقتضاه كل موحد . وهو فى ذاته حق وهداية وصراط مستقيم . اهتدوا به فهداهم للتي هى أقوم . ولو أن المسلمين فى العصور التى تلت الصدر الاول جعلوه وحده قانونهم فى الحياة لما نكبوا تلك النكبة ولما تمزقت وحدتهم هذا التمزق الشائن المخجل

ما الذى استفاده المسلمون من التفاسير التى وضعها المتأخرون على كتاب الله ؛ هل ما فيه من آيات الاخلاق وما به من قواعد الحياة يحتاج الى شرح وايضاح ؛ أعربوه ؛ ونقلوا فى الاعراب جميع ماقاله البصريون والكوفيون فماذا كانت النتيجة ؟ هل زادوا فى ايضاحه ، أم صرفوا القارىء عن النظر فيه ؛ طبقوا عليه علوم البلاغة من معانى وبيان

وبديع ، فما تركوا مجازاً عقلياً أو لغويا الا تكلموا فيه ، ولا استعارة على اختلاف أنواعها الا بحثوها وذكروا مذاهب البيانيين فيها. تكلموا فى الفصل والوصل وفى الكناية وفى الجناس وطبقوا سائر مادون فى هذه العلوم على آياته الكريمة فماذا كانت النتيجة ؟

هل أناروا معالمه فزادت هداية الناس به ، أم صرفوا القارىء وشغلوه بمباحث تم الكلام عليها فى مواضعها ، وانتهى البحث حولها فى أماكنها ؟ وما كان الغرض من تدوينها الا ايجاد ملكة صناعية لمن يريد فهم القرآن تقوم مقام ملكة العرب الطبيعية حتى اذا ما أراد النظر فى القرآن كان له من تلك الملكة ما يستطيع به فهم بلاغة القرآن على وجهها ؟

[illegible]

[illegible]

[illegible]

طبقوا عليه آراء المتكلمين ومباحثهم، فهل زادوا أدلته وضوحاً وبراهينه جلاء، أم شغلوا الناظر فيه عن الدلائل السهلة الواضحة، والبراهين الفطرية الموضوعة لعموم الامة واوجدوا أمامه مباحث تضل به في انظار وهمية، وفروض واشكالات بلغ من اختلاف أصحابها فيها ان تضارب قول الشخص الواحد منهم، واختلف رأيه في المسألة الواحدة؟ تعرضوا في تلك المباحث لتحديد طبائع الوجود، ومهايا الامور الغيبية، وتناولوا البحث في ذات الله وفي صفاته، والبحث في حقيقة الروح والملك وسائر ما استأثر الله بعلمه من أمور الغيب التي نهى البشر عن الخوض فيها. ولولا الرغبة في احلال الهداية البشرية محل هداية الوحي لما نكب المسلمون تلك النكبة، ولما ذكروا تلك المباحث في تفسير كتاب الله!!

القرآن والقصص

في القرآن آيات تتعلق بقصص الا[illegible] [illegible]
القصص تعرض أهم التجارب التي [illegible]

سبقت نزول القرآن . فيها أخطر الانقلابات التى مرت على الجنس البشرى ، فيها الانقلابات الدينية التى يتغير بها وجه الحياة فى الجزء الذى تتناوله الدعوة ويشمله الدين المدعو اليه ، فيها مقاومة الحق للباطل ، واستبسال الباطل فى الدفاع ، وفوز الحق عليه فى النهاية فوزاً تتجلى فيه ما للصفات الفاضلة من التأثير فى مجرى الحوادث . فى تلك القصص بيان ما للدعوة الى الحق من التأثير ، وما للثبات الداعى من التأثير فى نجاح دعوته ، وما للاعتماد على الله بعد بذل كل ما فى الوسع من الاثر فى نجاح الداعين الى الحق ، فى تلك القصص تشابه قلوب الجبابرة وتماثل دعاويهم ، وتقارب عواقب أمورهم . وفيها تظهر الادلة البينة على ما لله من حكمة ، وما له من رحمة . وما عنده على الحق من غيرة . فيها البراهين التاريخية الحية على وجوده وعلى قدرته وعلى وحدانيته وعلى صدق رسله وعلى نصر الحق ، وان كثر أعداؤه ، وفوز فكرة الخير ، وان قل منها من أعوان وأنصار . فيها تكرار . . . كثر منه بأسلوب واضح وألفاظ

لاتحتاج الى شرح أو تفسير ولقد ذكر القرآن أكثر تلك القصص بأساليب مختلفة من الطول والقصر ليكون من مجموع ماذكره مايغنى عن الحاجة الى الشرح والبيان ، كما أن فى ذلك تربية لملكة الاتعاظ والاعتبار ، والتربية تحتاج الى تنوع الذكر ، والتنوع غير التكرار . وأهم شيء يريده القرآن من ذكر تلك القصص هو تربية الزعماء والجماعات الداعية الى الخير، وتثبيت ملكة الاعتبار والاتعاظ فى نفوس الامة ليكون لها من النظر فى الماضى عبرة ، ومن التأمل فى وقائع الغابرين عظة

ماذا عمل متأخرو المفسرين فى تلك الآيات ؟ هل تركوها على وضوحها لينتفع بها الناس . وهل أدركوا مايراد منها فدعوا الى الاعتبار بها وتركوا الكتابة والتعليق عليها؟ لم يفعلوا شيئا من ذلك بل عمدوا الى الاسرائليات المكذوبة فجعلوها تفسيراً لتلك الآيات الكريمة . وياليتهم نقلوا من الروايات الاسرائيلية ماهو معقول فى ذاته ، أو ماله صلة بغرض القرآن ، بل ذكروا، كما يقول ابن خلدون ، مارواه

عامة أهل الكتاب القاطنين ببلاد الحجاز ، فكان مانقلوه خلاصة المفتريات التي يرويها أهل الكتاب!! ومن الغريب المدهش أنك تقرأ في الكتب العلمية أنهم أجمعوا على رفض الاسرائيليات ، وقد بالغوا في ذلك حتي جعلوا لفظة (اسرائيليات) علامة على كذب الحديث وافتراء الرواية .

ولكن متأخرى المفسرين ، عفاالله عنهم ، نقلوا خرافات الجهلة من بني اسرائيل في تفسير كتاب الله وطبقوا عليها معاني التنزيل ، فتركوا للمسلمين أقبح ميراث ، وألعن تركة علمية . ولقد انتفع المبشرون بتلك السقطة أيما انتفاع ، وكان لهم منها معين لا ينضب [illegible] لا [illegible] له نهاية

ان ما [illegible] في تفسير تلك الآيات قد حال [illegible] بل أوجد للعلماء مشكلة [illegible]

[illegible]

مفترى ، واختلاق يحرم نقله وتمنع روايته . ولكن ما الحيلة وقد اختل نظام التأليف كما اختل شأن الهداية ! وليتنا اذ فقدنا الاهتداء بكتاب الله لم نفقد الاهتداء بالعقل !! ولكننا فقدنا الاثنين معاً ! وليتنا اذ فقدناهما خلصت عقولنا لشؤون الحياة ، لكننا فقدناهما فقداً انتهى بنا الى خلق مشاكل لا هى مفهومة ولا هى نافعة . تذكر فى كل كتاب، وتقرأ فى كل مصنف ، كما تقرأ فاتحة الكتاب فى الصلاة ! فلا نحن اهتدينا الى حلها ، ولا هى فى ذاتها قابلة للحل ، لان حلها فى [illegible] ها ، والقوم يتشبثون بها . على حين أنهم فرطوا فى كل شىء : فرطوا فى شؤون الدين ، وفرطوا فى شؤون الدنيا ، ثم استمسكوا بتلك المباحث وحدها فهم [illegible] أن [illegible] تركيب [illegible] بها ذهبت [illegible] ذ[illegible] ب [illegible]

المسـ [illegible] !!

[illegible]

أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وكنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » . ان القرآن لا يزال بايدى المسلمين ، وقد جربوا نتيجة الاهتداء به فى الصدر الاول وجربوا عاقبة الانحراف عنه فى القرون المتأخرة ، فما الذى عولوا على سلوكه فى الوقت الحاضر ؟ هل يريدون احياءه كما أحياه السلف ، أو إماتته كما فعل الخلف ؟

مضى القرن الاول والثانى وليس بأيدى المسلمين تفسير واحد ، مع ان جميع البلاد الاسلامية قد تم فتحها فى ذلك العصر ، وكمل اختلاط الشعوب الاسلامية بعضها ببعض ، وكان للجميع قانون واحد فى التربية : هو القرآن ، جعلوه مدار حياتهم ، فداروا حوله وحده . فهل يمكن ان يقال بعد ذلك أن الاهتداء بالقرآن ، يتوقف على تفسير أو شرح ؟ وماذا عملت تلك المجلدات التى تفوق الحصر فى هداية المسلمين ؟!

لقد اختل أمر التربية فى البيوت وفى المجتمعات ، واختل أمر التربية الخلقية ، واختل نظام الحكومة الاسلامية ، وضعفت شوكتها وزالت هيبتها ، المسلمون هم المسلمون

والقرآن هو القرآن ، فما الذى أوجد تلك الحالة السيئة ؟؟

أيمكن أن يقال ان للموضعه متأخرو المفسرين لكتاب الله في التفسير من المباحث والروايات دخلا في إيجاد تلك الحالة، وفي دوامها ، لانهم اوجدوا للناظر في القرآن شواغل تحول بينه و بين الاهتداء فيه ، على حين انه يظن انه مهتد بالنظر في تلك المباحث والروايات !

أيمكن أن يقال : ان تلك التفاسير نقلت معنى الاهتداء بالقرآن الى الاهتداء بما فيها هى ، فأفهموا المسلمين انهم يهتدون بالقرآن وفى الحقيقة هم لا يهتدون الا بتلك التفاسير ؟. لا ريب ان تلك التفاسير عليها تقع التبعة وتلقى المسؤلية فيما أصاب المسلمين في العصور الاخيرة من الفجائع والمصائب ، كما ان تركها يتوقف عليه نجاح النهضة الحاضرة

فهم القرآن

على المسلمين اليوم أن يجيدوا تعلم علوم اللغة العربية فإذا تم لهم ذلك جعلوا القرآن قانون نهضتهم في الحياة . ولا يستثنى من ذلك إلا الآيات الاحكام وحدها فإن ارتباطها

بالسنة ، وارتباط السنة بها ، يجعل ادراكها من خصائص مجتهدي الامة وحدهم ، أما مايتعلق بالعقائد والاخلاق وسنن الوجود فعلى كل مسلم أن يهتدي فيه بهدى القرآن وحده ، وأي حاجة بالمسلمين الى ما كتب فى التفاسير اذا ماأرادوا أن يعملوا بقوله تعالى «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » ؟ ان فهمهم لتلك الآية واهتداءهم بها لايتوقف على اجراء الاستعارة فى لفظ الحبل وما يرتبط بذلك الاجراء من المباحث ، ونقل المذاهب فى الاستعارة ، واجراء عدة استعارات فى الآية

يمكن المسلمين أن يفهموا قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله . ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » بدون التعرض الى مافى الآية من المباحث البيانية

حقاً يمكن فهم تلك الآيات والانتفاع بها اذا خلى بين النفس وبين ادراك المعانى ، وهذا لايكون الا اذا وضع الانسان المصحف أمامه وسلم له نفسه . أما [illegible] أمركذا

مع القرآن غيره توزعت قوى الفهم، وانتقل الانسان من مبحث الى مبحث، ودخل في طور الجدل والمقصود انما هو العمل وقلما أدى الجدل الى العمل. من أجل ذلك يجب أن يترك المسلم نفسه للقرآن وحده اذا أراد أن يجعله قانونا للحياة

الجهاد والقرآن

أى حاجة الى التفسير اذا ما أراد المسلمون أن يعملوا بقوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم » ؟

وهل مثل هذا البيان يحتاج الى تفسير ؟ وأى أمة لها في الحياة مثل تلك القاعدة في بيانها ووضوحها، ثم تترك العمل بها في الوجود الخارجي، وتهتم باعرابها واجراء الاستعارات فيها، ونقل الآراء الخاطئة في تأويلها : هل اشتغل عمر وأبو بكر رضي الله عنهما بتطبيقها على شؤون الحياة، أم تطبيقها شيء [illegible] الاخفش في النحو والصرف، واستنبط [illegible]

لها بالحياة ، ولا علاقة لها بروح القاعدة ؟!

ان عظمة انكلترا ما كانت الا من اليوم الذى قررت فيه أن يكون لها أسطول يفوق أسطول دولتين من دول أوربا العظمى . ولقد قال بتمان هلفج فى مذكراته : « لقد كنا نتباحث فى انشاء أسطول بحرى ، وكان ذلك موضع أخذ ورد لدينا ، فى الوقت الذى كانت تعتقد فيه انجلترا أن تفوقها فى البحر مسألة حياة أو موت » !

ومن يتدبر ماورد فى القرآن من الآيات الآمرة بأعداد القوة الحربية يدرك ادراكا لاريب فيه أن التفوق فى القوة فى نظر الاسلام مسألة حياة أو موت : « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة »

واذا كان القرآن يقرر أن مسألة القوة مسألة حياة أو موت ، فهو يقرر كذلك أن على المسلمين أن يعدوا لعدوهم ما استطاعوا من القوة ، ويبين أنهم لا يعدون قائمين بهذا الامر الا اذا أعدوا ما يرهب العدو الظاهر الذى يعلمونه

والعدو الخفى الذى لا يعلمونه . أى أنهم لا يخرجون من عهدة الامر الا اذا أعدوا قوة لا يمكن التغلب عليها بحال. من أجل ذلك أمرهم بأن يكونوا جميعاً على أهبة واستعداد: « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله» ولم يستثن الا من ذكره فى قوله : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله » والقيد الاخير أشرك هذا النوع المستثنى فى الجهاد السياسى ، لانه لا يرتفع عنه الحرج والاثم الا اذا نصح لله ورسوله . وذلك بأن يؤدى خدمة سياسية،أو يقوم بوظيفة النشر « أو البر وباجندا بلغة أوروبا السياسية»

ماذا على المسلمين لو جعلوا هذه الايات قاعدة حياتهم وأغفلوا ما كتبه متأخرو المفسرين،من أن الامر للوجوب أو الندب ، ومن أن الاستطاعة قبل الفعل أو معه ، ثم تحديد ماهية الاستطاعة ؟ ومن الكلام فى أن الجهاد فرض عين أو فرض كفاية ، وماالى ذلك من المباحث التى أتعبوا

الامم ذكرها، والتشويش بها على قانون حياتها العام؛ ولقد قام المسلمون بذلك الغرض قبل أن تظهر تلك المباحث، ثم أهملوه بعد ظهورها، لما لتلك المباحث من التأثير فى الاعتقاد بأن مسألة القوة، مسألة حياة أو موت. والعقيدة تحتاج الى تربية وتكوين وتنمية. لا الى تشويش وتشكيك. وقلما اجتمع الاعتقاد والجدل فى نفس واحدة

أى حاجة الى التفسير فى قوله تعالى : « ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال... الاية؛ فقد عمل بها المسلمون يوم فتحوا الدنيا، وملكوا ناصية الامم، قبل أن توجد المباحث التى يوردها متأخرو المفسرين، فى تفسير تلك الاية، كبحثهم فى التحريض من جهة اشتقاقه. ومن جهة معانيه اللغوية، وكبحثهم فى الامر : هل هو للوجوب أم الندب، وهل هو خاص بالنبى أو هو من الاوامر العامة. الخ ما أطالوا به فى تفسير تلك الاية. ولو أنهم عملوا بها وتركوا البحث فيها على مناحيهم الاخرى، لما فقد بين المسلمين ذلك الروح الحربى الذى وجد [illegible] على القتال

بين سلفهم فى الصدر الاول . ونماه دوامه وازدياد النشاط فيه

أمر القرآن أمير المؤمنين بان يحرضهم على القتــال ، وترك بيان كيفية ذلك التحريض ، ليكون للمحرض كامل الحرية فى ابتكار مايشاء من الاساليب ، واختراع ماترشد اليه التجارب من الـكيفيات .شأنه فى الاوامر التى يكون الزمان وحده هو الـكفيل ببيان كيفيتها، وتوضيح أنواعها كالامر باعداد القوة ، والامر بالتعبئة العامة فى قوله: «انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالـكم وأنفسكم فى سبيل الله » وكالامر بالاحسان بذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيـل . والى ذلك أشار الرسول بقوله : «من سن سنة حسنـة فله أجرها وأجر من عمل بهـا الى يوم القيـامة » الحديث . فقد بين علماء السنة أن استنان السنن الحسنة الذى حرض عليه الرسول لايكون إلا فى الامور التى ترك الشارع بيان أنواعها وضروبها وكيفيتها الى ذوى الرأى ، واختبار أولى التجارب . ومن هذا الباب قوله تعالى :

« ياأيها النبي حرض المؤمنين على القتال » فان وضع نظام خاص لتحريض المؤمنين على القتال لايمكن أن تجيء به الشريعة التي تصلح لكل زمان ومكان ، بل لابد أن تترك تحديد النظام لمقتضيات الزمن ، وتطورات الاحوال الاجتماعية . من أجل ذلك جاء بالتحريض على تلك الصورة وترك نظامه لمقتضيات الزمان والمكان . وقد فهم المسلمون ذلك فآمنوا بان في القرآن أمراً بتحريض المؤمنين على القتال ، وعلموا أنهم مكلفون بامتثال هذا الامر ، واستخلصوا من عمومات الشريعه أن عليهم أن يبذلوا مافى وسعهم لتنظيم أمر التحريض ، حتى يقع امتثال الامر على أتم مايمكن أن يكون .

فكان الامام يحرض في خطبه السياسية ، وفي خطبه على المنابر يوم الجمعة . وكان يأمر نوابه بان يحتذوا على مثاله في تحريض المؤمنين على القتال ، فكانت المنابر الاسلامية تنبعث منها مواقد الحمية ، وتشعل فيها نار التحريض . وكان الخطباء تتفنن في أفهامهم هذا الواجب ، وكان للوعاظ عناية

بهذا الامر . وكان للمدارس وحلقات الدرس ، أيا كانت ، اتجاه لتنمية هذا الغرض ، وتتميم هذا المقصد، وكان للوالد مع بنيه ، ولرئيس العشيرة مع عشيرته ، ولكل ذى نفوذ مع جماعته ، تدارس لهذا الامر ، ورغبة فى انعاش الروح الحربى وتنمية فكرة التضحية، والترغيب فى الاستشهاد فى سبيل الله ، وكان أهم وسيلة تتخذ لتحريض المؤمنين على القتال هى قراءة ما ورد فى القرآن من الايات المتعلقة بالحث على الجهاد ، والتحريض على الانفاق فى سبيل الله ، وتحبيب الاستشهاد الى نفوس المؤمنين ، وبيان ما يترتب على اعلاء كلمة الله من الفلاح فى الدنيا والسعادة فى الاخرة . قرأ المؤمنون مافى القرآن من الاوامر والوصايا والوعد والوعيد والترغيب والترهيب المتعلقة بالجهاد ، والدعوة لاعلاء كلمة الله ، فكان لهم من القرآن معين من التحريض لا ينضب ، فاستطاعوا الاحتفاظ بالروح الحربى ، وبمبدأ التضحية والاستشهاد فى سبيل الله ، ولولا انهم عرفوا فائدة التحريض على القتال فى تنمية روحهم الحربى، وأدركوا علاقته بحماية الدعوة

الاسلامية ، وبصيانة الملة ، وفهموا وسائله المؤدية اليه، وعملوا بما أمروا به من ابلاغ نظام التحريض الى أقصى درجة ممكنة ، لولا ذلك جميعه لما تم للمسلمين فى تلك المدة القليلة من الفتح والغلبة والانتصار على جميع الملل مالم يعهد له نظير فى أى دور من أدوار التاريخ العامة

للامم الحربية اليوم نظام واسع النطاق لتحريض قومهم على القتال . وساعدهم على ذلك ما أوجدته المدنية الحديثة من المطابع ، ووسائل النقل السريعة ، ووسائط نقل الاخبار على عجل، و[illegible] نظام الشكنات الحربية والمدارس العسكرية والرغبة فى تقديم مطاليب وزارة الحربية على سائر ما تطلبه الوزارات الاخرى . و[illegible] تلك الخصائص والمزايا لم يصل [illegible] لما وصل اليها سلفهم فى [illegible] الهجرة فى عصره [illegible]

[illegible]

حماية الدعوة المحمدية : (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم
وأموالهم بان لهم الجنـة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون
ويقتلون ،وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ،ومن
أوفى بعهـده من الله :) الى:(قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم
واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة
تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله
ورسوله وجهاد في سبيله ،فتربصوا حتي يأتى الله بأمره
والله لا يهدى القوم الفاسقين) الى غير ذلك من الآيات
التي وردت في هذ[illegible] شأن

ولقد اشتملت سورة الانفال على خمس و [illegible] من آية
وجاءت بعدها سورة التوبة وهي تحتوي مائة تسعا وعشرين
آية [illegible] في شأن الجهاد [illegible]
[illegible]

بالجهاد والقتال في سبيل الله ما يزيد عما فى سورتى الانفال والتوبة

ولقد انتفع المسلمون بتلك الآيات يوم أرادوا أن يقرأوا القرآن ليعملوا بما ورد فيه ، يوم اعتبروا ما ورد فى الجهاد من الآيات قانونا يجب العمل به لا جداول تطبق عليها المذاهب النحوية والصرفية والبيانية والكلاميه، أقصى مايفهم منها فهم ما كتب الكاتبون عليها . ان تم ذلك فقد انتهت مهمة المفسر وقضيت حاجة الراغب فى مطالعة التفسير أما العمل بما فى تلك الآيات ، أو الحث عليه ، أو دعوة المؤمنين الى احيائه ، أو مطالبة الحكومات الاسلامية تنفيذ ماجاء فى تلك الايات ، فامر قد نسيه تاريخ المسلمين بعد انقضاء الصدر الاول

قوة تأثير القرآن

القرآن كلام الله . وله تأثير خاص فى تربية الملكات وتكوين الاخلاق وتثبيت العقائد . علم المسلمون ذلك فى صدر الاسلام . فوكلوا إليه وحده تربية أخلاقهم وتكوين

مشاعرهم ، وتنظيم عقائدهم ، وأدركوا أن من المستحيل أن يقوم غير القرآن مقامه فى تربية النفوس ، وتكوين النزعات فابوا أن يأخذوا عقائدهم وأخلاقهم ومشاعرهم عن غيره ، لانهم أيقنوا أن ليس فى استطاعة أى انسان أن يؤلف ، كلاما يحمل فى كيانه تأثيرا يماثل تأثير القرآن أو يدانيه أو يقع قريبا منه

وأى مفسر يستطيع أن يأتى بكلام يؤثر فى نفس السامع تأثير قوله تعالى : (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؛ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين ؛ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليم [illegible] أدلكم [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تحتها الانهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين »

أما كان ينبغي أن تترك هذه الآيات بدون تفسير ولا تعليق ، ثم تسلم اليها نفوس المسلمين لتفعل فيها مافعلته باسلافهم فى الصدر الاول ؟

من الكلام ما اذا سمعته شعرت بأن فيه روحا تملك عليك أمر نفسك ، وهذا النوع من الكلام لايغنى غيره غناءه. وان حاولت تفسيره أو بيانه بعبارة أخرى فقد جنيت عليه شر جناية ، لانك تكون قد فصلت روحه عن بدنه ، فأصبح كلاما خاليا من التأثير ، مجردا من الروح الذى كان يملك عليك أمر نفسك ؛ وأضحى السامع فى الحقيقة لا يسمع الا كلام المفسر ، ولا يتأثر الا بما جاء فيه وحده. ذلك شأن خطب على رضى الله عنه فى نهج البلاغة ، فأنك لو حاولت تفسيرها [illegible] أن [illegible] الامر الى أن تنقل للناس [illegible] أن [illegible] . أما ما لا يمكن نقله

من روحها ، وهو الجزء المؤثر منها ، فسوف يخلو كلامك منه لامحالة

واذا كان هذا محسوساً فى كلام البشر ، وغير منازع فيه بين بنى آدم ، فان الشأن فى كلام الله أجل وأرفع . ولو أن طريق التعليم والتصنيف عندنا كانت تترك وقتاً يسمح بأن يكون الناظر فى القرآن ، بعد أن يفهم ويبحث جميع ما كتب عليه من الشروح والحواشى ، متسع من الوقت يخلو فيه بنفسه ، فيترك تلك الابحاث جانبا ، وينظر فى القرآن نظرة خاصة يدرك فيها روح الكتاب ومعناه ، لهان الخطب ، وخف وقع المصيبة . بيد أن المفسر والمعلم والمتعلم . كل أولئك يعتقدون أنهم متى أتموا فهم ما كتبه الكاتبون على القرآن من تلك المباحث ، فقد انهوا من مهمة التفسير ، وخرجوا من عهدة الامر بتعليم القرآن وتفهيمه للناس ، وتبليغ ما جاء به الى الامة . والا فلماذا ضعف تأثير الكتاب فى القرون الاخيرة مع كثرة المعلمين وكثرة المكاتبين عليه ، وكثرة طلاب العلم الدينى فى أنحاء [illegible] ، [illegible]

وانتشار دروس التفسير فى كل ناحية من نواحى العالم الاسلامى ، وطبع آلاف المجلدات من التفاسير المختلفة ، ووجود المكاتب التى حفظت التفاسير المخطوطة ، حتى أصبح لدى المسلمين اليوم من التفاسير مالم يتيسر وجوده فى أى عصر من العصور الماضية ؟!

القرآن والمعارف الوضعية

فى القرآن آيات تتعلق بالسماء والارض والجبال ، والسحاب المسخر بين السماء والارض ، والرعد والبرق ، والليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، والرياح والبحار والانهار . وغرض القرآن من ذكر هذه المخلوقات هو ارشاد المسلمين الى انها من صنع الله ، ومن آثار قدرته ، يتجلى فى ارتباط بعضها ببعض ، ثم فى ارتباط جميعها بنظام الحياة العامة . ويتجلى فى ذلك من الدلائل والآيات ما يشهد [illegible]

[illegible]

ما ساق القرآن آية واحدة من تلك الآيات المتعلقة
بالسماء والارض والكواكب والبحار والجبال وهو يريد
أن يبين طبيعة شيء منها، أو يشرح ماهيتها، أو يتعرض
لما وضعت له علوم الهيئة والفلك والجيولوجيا، بل ولا علم
ما وراء المادة الذى يحاول الوقوف على مهايا الاشياء،
وأسرار الوجود، لان القرآن ما جاء لغرض من تلك
الاغراض التى وضعت لها تلك العلوم، وكانت موضع بحث
الفلسفة فى كل عصر من العصور، وانما جاء لتذكير الناس
وهدايتهم وارشادهم الى أن للكون صانعاً تدل عليه الآيات
التى ينطوى عليها ما فى الكون من أرض وسماء وشمس
وقمر، ونجوم وكواكب، وان شيئاً من ذلك ما كان ينبغى
أن [illegible] من دون الله، أو أن يتخذه الناس اربابا، [illegible] أنه
لا [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

على البشر اهمالهم التفكر في شأنه، وما الى ذلك مما يبين غرض القرآن، ويحدد وجهته. ولكن متأخرى المفسرين عفا الله عنهم، اغفلوا غرض القرآن، واعتبروه كأنه لم يكن، وانقسموا في تفسير تلك الآيات قسمين: قسم يريد أن يبحث في طبائع تلك الاشياء، وماهيات تلك الامور، من طريق النقل، والآخر يريد البحث من طريق العلوم المتعارفة في عصره

عمد القسم الاول الى الاسرائيليات المتعلقة ببدء الخليقة، وأسرار الوجود، وكيفية خلق الكائنات، فنقلها من أولها الى آخرها، على رغم ما جاء في السنة من النهي عن الرواية عن أهل الكتاب نهيا صريحا قاطعا، وعلى الرغم من نهي القرآن عن القول بغير علم، وعلى الرغم من نهيه على الخصوص عن البحث في حقائق الاشياء لمعرفة ماهياتها، والوقوف على ما لها من أجناس وفصول، ليتم تحديدها على حسب ما تقرر في المنطق (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم. ويسألونك عن الروح. قل

الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا . ولا تقف مالیس لك به علم) الى غير ذلك من الآيات التى تبين انه العقل البشرى لا يستطيع أن يصل الى معرفة الاشياء ، لانه مالديه من العلم لا يؤهله لذلك ، فانه لم يشهد خلق السموات والارض . ومتى كان غائبا حين الخلق ، وكانت معارفه مقصورة على ما يستفيده بحواسه ، ويمكن استخلاصه من النتائج المبنية على المشاهدات والمحسوسات ، فمن المستحيل عليه أن يقف على حقائق الاشياء . واذا كان هذا شأن العقل ، وكان القرآن نفسه مؤيدا لتلك الحقيقة ، وناهيا عن التطلع لمعرفة حقائق الاشياء ، فقد انسد على الباحث طريق العلم من جهة العقل ، وطريق الوصول من جهة النقل ، وأصبح لا مناص له من تحويل بحثه الى الجهات النافعة فى الدين والدنيا أما الجهات النافعة فى الدنيا فهى معرفة الكميات والكيفيات التى هدت اليها التجربة والتى يمكن أن تنفع الناس فى أمور المعاش ، وشؤون الحياة . وقد رسمت العلوم حين حصرت بحثها فى تلك الدائرة الى أسمى مقامات الفخار ومراتب المجد ،

وأما الوجهات النافعة فى الدين فهى الاعتبار بما فيها من الدلائل الموصلة الى العلم بأن للكون صانعا عليما، ومدبرا حكيما، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير

ولو أن من عني بالنقل من المفسرين اهتدى الى الغرض الذي يريده القرآن، وراعى مانهت عنه السنة من الرواية عن أهل الكتاب، لما حشى تفسيره بخرافات الاسرائيليين المتعلقة ببيان العناصر التي تتكون منها السماء، وبيان حجوم السموات، وبيان طبيعة الارض وعناصرها، وكيفية خلقها، وما الى ذلك مما يدل على أن هؤلاء الناقلين قد شهدوا خلق السموات والارض، وان كان الله يقول في كتابه «ما أشهدتهم خلق السموات والارض». ترى لهؤلاء المفسرين أقوالا غريبة في ماهية السحاب والرعد والبرق، وكيفية خلقها، ولهم روايات غريبة [illegible] وفي السماء والجبال، كأنهم يعلمون [illegible] الأرض [illegible] قالوا عن [illegible]
[illegible]
[illegible] أهل الكتاب

القاطنين بالحجاز . وما رأى الناس قوما أضاعوا كتابهم كما
أضاعه هـذا القسم الذى عنى بنقل جميع ماافتراه أهـل
الـكتاب على الله وأنبيائه وكتبه من الآثار والروايات التى
لايقبلها العقـل ، ولا يؤيدها النقـل ، ولا ترتبط بغرض
القرآن ، ولا تنفع فى دين ولادنيا !

ولو أنهم جمعوها على حدة . ونشروها بين الناس لما
نالت تلك الحظوة التى نالتهـا يوم رويت على أنهـا تفسير
لـكتاب الله . يذكر المفسر من هؤلاء القـوم الآية من
كتاب الله ، ثم يسوق ما يشاء من الاسرائيليات على أنه
تفسير وبيـان لمراد الله، فأى علاقة بين ماينطق به القرآن
المنقول بالتواتر ، وبين خبر [illegible] مكذوب ، يرويه
قوم فى جزيرة العرب، و جهلة أهل الـكتاب وعامتهم!؟
وإذا كان تفسير [illegible]
فكيف يكون [illegible]
[illegible]
[illegible]

(ان هــذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) فسلب هؤلاء المفسرون منه تلك الخاصــة ، وجعلوا خرافات أهل الكتاب حاكمة عليه ، وجعلوه خاضعا لما تقضى به ، فما فيها هو الذى يحدد معنى الآية ، كأن لم يكن للقرآن لغة ولا قواعد ، وكأن لم يكن للاسلام أصول ولا نواميس ! ولقــد انتفع المبشرون بتلك الغلطات الفاحشــة انتفاعاً يئن منه المسلمون اليوم ، ويألمون أشــد الألم . ولو وقف متأخرو المفــسرين عندما حددت لهم الشريعة ، وتركوا الروايات الاسرائيلية ، لما استطاع المبشرون أن يجــدوا فى القرآن مغمزا لغامز ، أو مطعنا لطاعن

***

وأما القسم الثانى فقد جعل القواعد المألوفة فى عصره أساساً ، وحمل كلام الله عليها وهو فى ذلك صنيع يأباه العلم والدين معا . وقد أظهرت الأيام خطأهم فيما ذهبوا اليه من اخضاع نصوص القرآن للمعارف التى كانت متعارفة فى أزمانهم ، لأن العلم اليوم قد برهن على فساد كثير من

تلك القواعد والمعارف . ولو أنهم أدركوا أن للعلوم غرضاً يخالف غرض القرآن ، وأن للقرآن غرضا لا صلة له بغرض العلوم ، لما وقعوا فى تلك المهاوى المهلكة

تبحث العلوم الطبيعية عن الكميات والكيفيات التى ينالها البحث والاختبار ، وما عدا ذلك فهو خارج عن حدود وظيفتها . أما القرآن فقد علمت غرضه واتجاهه . ويمكن المسلم أن ينتفع بكل العلوم الطبيعية بدون أن يخضع نصوص القرآن لها ، كما يمكنه أن يهتدى بالقرآن دون أن يتعرض لحدود العلوم الطبيعية . ولو تأملت ما كتبه المفسرون فى قوله تعالى (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوماً) لأخذك العجب من كل ناحية اذ أن الآية لا تحتاج الى شرح ، لانها فى نهاية الوضوح وغاية البيان

تقول العرب طلعت الشمس على كذا وغربت عن كذا ، قال الله فى كتابه (حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم) وقال (وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن

كهفهم ذات اليمين ، واذا غربت تقرضهم ذات الشمال) أى طلعت عليهم وغربت عنهم، فهنا كذلك يكون معنى الآية: حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة. كما وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً. وحروف الجر ينوب بعضها عن بعض ؛ (فى) هنا نابت مناب (عن) كما نابت عن (على) فى قوله تعالى ولاصلبنكم فى جذوع النخل، وهذا أمر معروف ومقرر فى لسان العرب. أما مطلع الشمس ومغربها فاسمان الآن معروفان ، قال الشاعر

أ مطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا
فقلت كلا ولكن مطلع الجود

وعلى هذا فمعنى الآية . حتى اذا بلغ ذو القرنين نهاية المعروف من العم[illegible] ذلك الوقت جهة المغرب ، وجد الشمس تغرب [illegible] عين حمئة . ومقصود القرآن أن يبين موقع العظمة التى وصل اليها ذو القرنين [illegible] بلغ [illegible] مغرب الشمس [illegible]

ورحمته للبشر . وشفقته على الانسانية ، واقامته معالم العدل
ورغبته فى اعطاء كل ذى حق حقه . الى آخر ما تضمنته
قصته المشهورة . ولا ريب أن ما ذكره من الآثار
والروايات المتعلقة بالمكان الذى تغرب فيه الشمس لا يحتاج
اليه القارىء لكتاب الله متى فهم أن (فى) بمعنى (عن) بل
لا يخطر له ببال ، فى ذلك الوقت ، المكان الذى تغرب فيه
الشمس ، لأن هذا ليس داخلا فى قصة ذى القرنين ، كما لم
يدخل فيها المكان الذى تطلع عليه فى نهاية المشرق ، والمكان
الذى تغيب عنه فى نهاية المغرب

وكذلك الشأن فيما حاول أهل القسم الثانى من التفسير
أن يحملوا عليه نصوص الآية على حسب ما كان معروفاً من
قواعد علم الهيئة فى ذلك الوقت . فإنهم [illegible] فى [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

عليه النصوص . ولو أنهم نظروا الى القرآن نظر من يرى فيه الكفاية ، وأن له أغراضا يجب أن تصان ، لما امتلأت التفاسير بالاسرائيليات الموضوعة ، والتأويلات الخاطئة والاشكالات المفتعلة

ولو أنهم جعلوا القرآن أصلا مستقلا بنفسه وتركوا الروايات الاسرائيلية المكذوبة جانبا ، لسلموا من التأويلات التي تخالف الدين والعقل معاً . واعتبر ذلك بما قالوه في تفسير قوله تعالى :

(وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ياجبال أوبي معه والطير - وألنا له الحديد أن أعمل سابغات وقدر في السرد) فقد ذكر متأخرو المفسرين في تفسير تلك الاية ما وصل اليهم من الروايات التي نقلها جهلة أهل الكتاب القاطنين ببلاد العرب ، فشوهوا وجه الآية وأتوا بما لا يصدر من عاقل ، فضلا عن عالم يريد بيان مراد الله . على حين أن الاية لو قطع النظر في فهمها عن الروايات الاسرائيلية لما ... شيء مما قالوه ، لانها في نهاية الوضوح وغاية

البيان ، فهي تشير الى أن داود قد سخرت له الجبال تسخيرا تسنى له فيه استكشاف ما فيها من المناجم والمنافع المادية، فكانت معه بهذا التسخير تسبحن الله وتنزهنه عن أن يكون خلقها عبثا بدون فائدة تعود على الناس فى معاشهم، وترتبط بهم فى مصالحهم . فتسخير الجبال وإلانة الحديد، كلاهما كان لداود بمقتضى قواعد مبنية على التجارب . شأن الصنائع ، وسنة الانتفاع بمخلوقات الله جل شأنه، وأين هذا مما قالوه فى تفسيرها ؟ سامحهم الله وعفا عنهم !!

القرآن وسنن الوجود

فى القرآن آيات ينسب فيها الفعل الى الله، على معنى أن سنته هي التى قضت بوجود ذلك الفعل ، وانه تم على وفق ما وضع عليه الكون من ربط الاسباب بالمسببات، والعلل بالمعلولات

وذلك كقوله تعالى «وسخرنا مع داود الجبال يسبحن» «انا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شيء سببا» «انا فتحنا لك فتحا مبينا» . «انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا» .

يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء والله خلقكم وما تعملون.

الى غير ذلك من الآيات التى تنسب فيها الافعال الى الله ، والمراد انها وجدت فى الكون على وفق ما اراده من جعل الاسباب مؤدية الى مسبباتها، وربط المعلولات بعللها ولو أن المفسرين تنبهوا لذلك لما رووا فى تفسيرها من الروايات ما يدل على ان الله جل شأنه قد فعل تلك الاشياء على سبيل المعجزة ، أو على غير قاعدة، أو على غير اطراد، وسنة مقررة فى الاسباب مع مسبباتها . ولما أوردوا من الاشكالات ما ينبيء بأن هناك تناقضا بين نسبة الافعال الى الله تارة ، والى العبد تارة أخرى ، لان الآيات صريحة فى أن لله سننا فى ايجاد الافعال ، ومن تلك السنن ما يدل على أن الافعال وقعت من غير قصد ولا ارادة كحركات الاشجار والنباتات [illegible] أنها وقعت مع الاختيار والارادة، كحركات الانسان الاختيارية [illegible]

[illegible]

وبمراعاة هذين الاعتبارين الصادقين يمكن ضم الآيات التي فيها نسبة الفعل الى الله، الى الآيات التي فيها نسبة الفعل الى العبد، من غير أن يخطر ما قالوه بالبال، أو يهجس بالخاطر ولكن القوم جعلوا مذاهب المتكلمين أصلا يجب تطبيق القرآن عليه، ومن هنا جاءت [illegible] تلك الاشكالات، ونتج عنه

لم يصل الى مسامعهم قول الله فى محكم كتابه (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الارض) وقوله: «إنا كل شيء خلقناه بقدر» أى بنظام مطرد ـ وقوله: «سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا»

ولو أنهم لاحظوا أن للمعجزات موضعا، وللاشياء الجارية على وفق السنن الالهية موضعا آخر لما خبطوا ذلك خبطا [illegible] على أن للمعجزات [illegible] أما [illegible]

[illegible]

ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الارض ،ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون) فانك تجد قولا وروايات وتأويلات لا صلة لها بما في تلك الآيات الكريمة ولا صلة لها بما ترمى اليه ، وتشير نحوه ، من سنن المفسدين التي يتبعونها في تمزيق الامم ، ومحو الوحدة القومية ، وجعل الامة الواحدة شيعا مختلفة ، وأحزابا متخاذلة واستضعاف طائفة واعلاء أخرى ، واحياء فريق ، وتعذيب فريق آخر ، وما الى ذلك مما نراه الآن قاعدة السياسة الاستعمارية ، وخطة ساسة الاستعمار في استعباد الامم ، بعد تحويلها الى أفراد متنافرة ، وشيع متعادية ، وبعد افناء نزعاتها القومية ، ومحو أخلاقها الكريمة ، وشيمها الفاضلة ، وبعد اضعافها بالتعذيب ، والذبح ، والنفي ، والاضطهاد ، وسائر ضروب الافساد في الارض . ذلك بعض ماتضمنته الآية الكريمة ، وفيه من الدلالة على مناهج المفسدين في الارض مالا يحتاج الى بيان ، أو يفتقر الى توضيح على أنه ان كان لابد من تفسير تلك المعاني ، في تفصيلها وضرب الامثال

لاثباتها ، وذكر المستندات التاريخية لتأييدها مايغني المفسر عن ذكر ما رواه جهلة بني اسرائيل وعامة أهل الكتاب القاطنين ببلاد العرب

وكذلك القول في تفسير قوله تعالى . (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض)الى آخر الآية فقد أطنب متأخرو المفسرين في ايراد ماروته بنو اسرائيل ، ونقله جهلة أهل الكتاب ، على حين أن الاية لايفسرها سوى [illegible]

[illegible] الظلم عنهم .

[illegible] في [illegible] عليهم ، [illegible]

[illegible]

[illegible] من

في سبيل الخلاص والتحرر من فرعون وقومه ، ما أدى الى استقلالهم وتحررهم من نير العبودية ، ومهالك الذل ومخاطر القهر ، وقد أشار القرآن الى ذلك في قوله « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة »

«ما كانت بيوت بني اسرائيل التي أمر الله موسى [illegible] لا [illegible]

أقرب [illegible] الخلاص وأنجع [illegible] التحرر [illegible]

بيوتهم على تلك [illegible] موسى [illegible]

[illegible]

فانها صرفت عقول المفسرين عن التفكير فى معانى القران ومراميه ، إذ جعلوا تلك الروايات أصلا يرجع اليه ، وقاعدة يجب انزال القران على حكمها . فما ورد عنهم فهو المفسر للآية . يغني عن اللغة . ويغني عن العقل ، ويغني عن المشاهدة . ويغني عن التجربة !!

نظام غريب ، وسنة درج عليها المفسرون ، الا من عصم الله ، فصرفوا عقول الناظرين فى القران عن ارشاداته ونصائحه ، ومراميه الى خرافات لا تعقل وروايات لا تفهم ، ونقول لا ترتبط بنظام يرجع الى أسباب ، أو ترتيب يعقل له وجه ، وأى عظة تستفاد من خرافات بني اسرائيل ، ومرويات أهل الكتاب ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فيهم .

« لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا » أخرجه البيهقى فى السنن وفى الشعب والديلمى وغيره

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فانهم لن يهدوكم وقد

[illegible]

الله فخذوه ، وما خالفه فدعوه) وقد بوب البخارى لذلك بابا خاصا سماه (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء)

فقال حدثنا موسى بن اسماعيل حدثنا ابراهيم أخبرنا ابن شهاب عن عبيد الله ابن عبد الله ان ابن عباس رضى الله عنهما قال (كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل على رسول صلى الله عليه وسلم أحدث ، تقرؤنه محضا لم يشب ، وقد حدثكم ان أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، فقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم !)

فإن كانت تصدق أهل الكتاب [illegible]
نظر اليها المفسرون نظرة [illegible]
[illegible]
[illegible]

غير منظور فيه الى ما فى التوراة ، والى ما فى التلمود (شرح التوراة) والى ما رواه عامة أهل الكتاب ، وجهلة بنى اسرائيل — من ذلك قوله تعالى (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) فلقد اضطرب فيها آراء المفسرين ، وتشعب قولهم فى تفسيرها تشعباً كان يمكن تجنبه لو نظر الى ما ورد فى القرآن بشأن أهل الكتاب جملة ، ثم ضم كل نظير الى نظيره ، وأضيف كل شىء الى [illegible] ، ثم كان مرجع التفسير [illegible] الاعتماد على [illegible] الآيات بعضها البعض ، دون نظرة الى رواية أو حكاية ، [illegible] من الروايات [illegible] خبراً [illegible] ما دام [illegible]

[illegible]

بآيات الله وآ انهم ثمنا قليلا ـ الا ليؤمنن بالقران وما ورد فيه بشأن عيسى قبل موت ذلك المؤمن، ويوم القيامة يكون القرآن أو الرسول عليهم شهيدا

الى ذلك يرشد ما ورد فى القرآن من قوله تعالى «الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، واذا يتلى عليهم قالوا [illegible] الحق [illegible] وقوله تعالى «الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته [illegible] به» وقوله تعالى (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن [illegible] وما أنزل اليكم وما أنزل [illegible] لا يشترون [illegible] أولئك لهم أجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب) [illegible] من الآيات التى تدل على [illegible] من أهل [illegible] لا [illegible]

[illegible]

وعلى [illegible]

[illegible] لا يؤمنون [illegible]

[illegible]

وعلى ذلك يستقيم تفسير الآية، وتكون غير دالة على أن عيسى عليه السلام سينزل قبل قيام الساعة وان أهل الكتاب سيؤمنون جميعا به فى ذلك الوقت كما أنها تكون غير دالة أيضا على ما يقوله بعض المفسرين من أن كل أحد من أهل الكتاب لا يموت حتى يؤمن بعيسى عند خروج روحه ولهم فى ذلك تأويلات وتعسفات ألجأتهم اليها روايات لا صلة بينها وبين مدلول الآية. وكان عليهم أن ينظروا الى الآية نظرة خاصة، ثم ينظروا نظرة أخرى الى هذه الروايات. فما كان منها موضوعا نبذوه. وما كان منها صحيحا أقروه وعينوا له موضعا خاصا يذكر فيه بدون أن يجروا الآية على أن تتصل به أو يجبروه على أن يتصل بالآية.

وكذلك قوله تعالى «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب» فقد ذكروا فى تفسير هذه الآية [illegible] الآية فى [illegible] على

[illegible]

الذى جعله على كرسيه جسداً لا حراك به ، شأن المريض اذا تمكن منه المرض واشتد به الالم ، ثم أناب ورجع الى صحته وشفى من مرضه

وأين هذا مما قالوه من أن الله فتن سليمان والقى على كرسيه الذى كان يجلس عليه للحكم ، وادارة شؤون الملك ، شيطانا يتحكم في سليمان وفى بيته وفى ملكه جزاء له على معصية ذكروها فى رواياتهم . ويأبى العلم أن يقرب منه الآن فيها نسبة ما لا يليق الى رسول اصطفاه الله واختاره من خلقه ولكن ما الحيلة فى قوم يرون أن ما يروى عن أهل الكتاب مقدم على ما يدين به المسلمون جميعا من عصمة الرسل؟ وفيما ذكروه فى داود ويوسف وابراهيم ما يحقق هذا الحكم بأن القوم قد شغفوا بالاسرائيليات فى درجة جعلتهم يتعامون عما اجمع عليه المسلمون من عصمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ولولا الحرص على ذكر الاخبار الاسرائيلية [illegible] القرآن دلالة أو شبه دلالة [illegible]

رسل الله وخيرته من خلقه ، ولكن القوم جعلوا الروايات
أصلا وجعلوا كتاب الله فرعا يجب تطبيقه على ما في تلك
الروايات، فهي المبينة لمراده والمفسرة لمعانيه ! فكان من
وراء عملهم [illegible] وخيم شغلوا به المسلمين .
وشغلوا [illegible] والقرآن والاسلام والوحي
المعصوم ، كل أولئك يبرؤون من ذلك . اولئك الذين هداهم
الله فبهداهم اقتده . الله يعلم حيث يجعل رسالته:

القرآن والدار الآخرة

[illegible] آيات [illegible] مصير اليه أمر العالم
قرب [illegible] الساعة [illegible] السماء ، وتكوير الشمس
[illegible] الأرض والجبال ، وطى [illegible]
[illegible] خالب [illegible]
[illegible] لا يتعلق [illegible] التي
[illegible]

[illegible]

الذي وقفه القرآن ، وتركوا الكلام فيها كما تركه القرآن ، لما حشوا تفسير كتاب الله بالا يصح في النقل ، ولا يقبل في العقل . ولما خلت نفوس المسلمين من الاعتبار والازدجار ، وخوف الله ، وما الى ذلك من الملكات النفسية التي أراد القرآن تكوينها في نفوسهم بتلاوتهم تلك الآيات وتأمل ماجاء فيها [illegible] مايريده القرآن فكانت موضع [illegible] وعمل اشتغالهم ، دون [illegible] به الوحي ، [illegible]

أن أحوال الجنة وأحوال النار من أمور الغيب التي لا تعلم إلا من طريق الوحي ، ولو أن متأخري المفسرين ، عفا الله عنهم ، لاحظوا هذا المعنى عند تفسير تلك الآيات لما نقلوا في تفسيرها ما روي عن جهلة أهل الكتاب ، وما وضعه الوضاعون في الملة الإسلامية ، وبين علماء الحديث أنه موضوع ، فأوجدوا بذلك طريقا للمبشرين ، ودخلا للطاعنين [illegible] الفكرين من أهل الله ،

[illegible]

القرآن والوعد والوعيد

في القرآن آيات تتعلق بالوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، وقد استوفى القرآن الكلام في هذا القسم استيفاء بلغ النهاية وأربى على الغاية ، على حين انه يأتي في كل موضع بما ينطبق على قوانين الوعظ ، وما تؤيده قواعد علم النفس ، ويتآخى مع العلم ، ويتعانق مع مقتضيات الفطرة وهل يعد وعظاً إلا كل ما تحتاج النفوس الى وعظ ، وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، بيد أن متأخري المفسرين غفا فهمهم ، رأوا ان ما ذكره القرآن يحتاج الى تتميم وتكميل ، فكملوه بالاسرائيليات وزادوا عليها نقل آثار فاه بها المتصوفون ومن كان على أيديهم فناء الملكات الاسلامية ، وتبديل الاخلاق المحمدية ، فجاءت تفاسيرهم مملوءة بما لا يتفق مع العقل وصحيح النقل . على حين أنها قد شغلت نفوس المسلمين عن النظر في أغراض القرآن ومقاصده ، فضلا عما جاء فيها من المباحث التي تتعلق بجواز خلف الوعيد ، وبأن يكون ما ورد في القرآن في باب الوعيد لا يقصد به الاخبار عن مآل

العصاة والمخالفين فى الدار الآخرة ، وإنما يقصد به التخويف والزجر ، فهدموا بذلك باب الوعيد ، وقسم الترهيب ، وأضاعوا أهم قسم أراد به القرآن تهذيب النفوس ، وإصلاح حال البشر ، حيث أفهموا المسلمين أن وعيد الله يجوز أن يتخلف ، وأن ما ورد فى القرآن بهذا الشأن لا يراد به ظاهره ، بل يراد به زجر النفوس وتخويفها فحسب ، بل جوزوا فوق ذلك أن يدخل الله المؤمنين النار ، والكافرين الجنة ، ذكروا ذلك فى تفسير كتاب الله فجنوا على الألفاظ وعلى المعانى ، وأخل بأيديهم ما عقده القرآن فى الوعد والوعيد ، وربما كان لهذا الصنيع تأثير غير قليل فيما يشاهد اليوم من انصراف المسلمين عن ملاحظة وعيد الله فى إتيانهم المعاصى وعدم استشعارهم هيبته حين اقتراف المنكرات ، مع مبالغة القرآن فى الوعظ ، واستيفائه هذا الباب أيما استيفاء ، وأى معنى للخوف ما دام الوعيد لا يراد به ظاهره !! وأى داع إلى تذكر الحساب والعقاب ما دامت صلاة ركعتين أو ركعات ، أو اعتقاد فى ولى ، أو

تلاوة دعاء، أو تلفظ بحزب، أو قراءة لورد، تضمن دخول الجنة، والتمتع بما أعده الله فيها للمؤمنين؟!

***

اختل نظام الوعد والوعيد لدى المسلمين من اليوم الذي تركوا فيه الاعتبار بما ورد في القرآن، وقصروا اعتبارهم على تأويلات المتكلمين، ومبتدعات المتصوفة. والمتكلمون يجوزون خلف الوعيد، ويجوزون كذلك عقلا أن يدخل الله المؤمنين النار، ويدخل الكافرين الجنة، ولا شك أن هذين التأويلين يتناقضان مع صريح القرآن كل التناقض، والمتصوفة تركوا مسألة الجواز جانباً، وشرعوا يضعون للناس مبتدعات جديدة، وقواعد مستحدثة، يقررون فيها أعظم ثواب لأصغر عمل مبتدع، كما يقررون أكبر عقوبة لأصغر ذنب مبتدع، جعلوا الجنة وقفا على ما وضعوه من عبادات، وأوراد، ومعتقدات، وآداب السلوك، ورووا في ذلك أحاديث موضوعة، وآثاراً مخترعة، وجعلوا النار كذلك وقفا على من اعترض عليهم، أو خالف

معتقدهم، أو تنكب طريقهم،* ورووا فى ذلك من موضوعات الحديث، ومفتريات النقل، ما لا يجوز عليه مسلم يقرأ كتاب الله وسنة رسوله . ولو أن المفسرين تركوا هؤلاء القوم وشأنهم وأبوا أن ينقلوا فى تفسير كتاب الله ما افتروه من الاحاديث، وابتدعوه من المعتقدات والاعمال، لظل قسم الوعد والوعيد بنجاة من التشويه، ولكان للمسلمين منه موعظة وذكرى، بيد أن الايام شاءت أن يخضع [illegible] كما خضع غيره [illegible] أهل الكتاب [illegible] أصبح المسلمون اليوم فى أشد الحاجة [illegible] يصلح لهم [illegible] [illegible] الاسلامية، وأصبحت [illegible] والمعتقدات، ومظنة [illegible] [illegible]

[illegible]

المسلمين بأمر النقل، وحرصهم على تحرير المروى، وتمييز غثه من ثمينه، وصحيحه من باطله ولا هم حرروا معانى التأويل، مع أن القرآن نزل بلسان عربى مبين، ولا هم تركوا البحث فيما تحرر فى موضعه من مسائل العلوم والفنون [illegible] لتفسير كتاب الله، موقنين [illegible] لكل انسان أن ينقل اليه ما عنده من صنوف البضاعات. فنقلوا فيه النحو كله، والصرف جميعه، وعلوم البيان بأسرها، وعلم الكلام برمته، وأصول الفقه وعلوم الفقه ...!.

أما خرافات أهل الكتاب، [illegible] الأقدم [illegible] فى تفسيرهم فما تركوا منها شاردة ولا واردة إلا ذكروها فى تفسير كتاب الله [illegible] ثم لم يكتفوا بذلك فذكروا الإشارات الباطنية والإشارات [illegible] كل ذلك الذى [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] فلسفية

من التحرير ، ومن التبويب ، ومن التذييل ، ومن الارتباط بمصالح الناس الدينية والدنيوية . معارف كانت علة مصائب المسلمين ، ومبعث انتشار الجمود والارتباك فى نفوسهم ومداركهم ، ولو أنها ذكرت فى غير التفسير لما أعارها الناس هذا الاهتمام ، ولكن صروف الدهر نكبت بها المسلمين فملأوا بها تفاسيرهم ، ووكلوا اليها اصلاح معاشهم ومعادهم ، فقادتهم حتى بلغوا ما هم عليه اليوم من استيلاء الاجنبي على جميع بلادهم ، وافتقارهم اليه فى جميع شؤونهم ، وأى مصيبة هى شر من تلك المصيبة ؟ وأى داهية هى افجع من تلك الداهية : وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ؟

وأى امة اضاعت كتابها كتلك الامة التى يرى علماؤها ان فى تفسير الآية الواضحة عشرة أقوال فأكثر ، كلها متضاربة متخاذلة ؟ فهل يتصور العقل البشرى ان ما نزل بلسان عربى مبين يؤل امره الى ان يكون فى واضح بيانه ومحكم لفظه ، مجالا لذكر اقوال متناقضة وآراء متخاذلة ؟ !

على المسلمين اليوم اذا ارادوا ان يعيدوا مجدهم السالف

وعزمهم الماضي ، ان يتخلوا عن تلك التفاسير جملة ، وان يحرروا معارفهم الدينية ، وان يرجعوها الى كتاب الله ، والى ماصح من سنة رسوله ، وان ينبذوا ماعدا الكتاب والسنة ، وان يقتصروا في آيات الاحكام على ماصح نقله عن الائمة المجتهدين ، اما ماعدا آيات الاحكام فلا يؤخذ الا من الكتاب والسنة ، على ذلك مضى السلف ، والى ذلك يشير الرسول في قوله (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى : كتاب الله ، وسنة رسوله) ❁

المعارف الاسلامية

أصول المعارف الاسلامية هي الكتاب والسنة والاجماع والقياس . وقد رجع المحققون من علماء اصول الفقه الاجماع والقياس الى الاصلين الاولين لان الاجماع لابد له من مستند منهما ، ولأن القياس لايكون الا بعد ثبوت حكم الاصل بالكتاب أو السنة ، فاليهما يرجع الامر كله في أمر المعارف الاسلامية ، على ذلك درج السلف ، وعلى ذلك مضى الائمة الموفق

الاولون .وقد قال صلى الله عليه وسلم (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى: كتاب الله وسنة رسوله)

وقد كمل الدين قبل موت الرسول وتمت المعارف الاسلامية بنزول قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »

وكلت الشريعة الاسلامية الى الامام الاعظم صيانة المبادىء الاسلامية وحمايتها عمليا من الزيادة والانتقاص. فكان أبو بكر يعاقب ليقتدى ويتحرى فى [illegible]

[illegible] فى المعارف الاسلامية [illegible]

[illegible]

ومن تلك الفروض مراقبة الامر بصيانة المعارف
الاسلامية، فكان الخليفة مع العلماء يتولون تنفيذ ذلك الفرض
ويقومون بصيانته، وكانت الامة تراقبهم في التنفيذ وتشرف
عليهم وقت العمل. من أجل ذلك حفظت المعارف الاسلامية
في الصدر الاول وصينت أتم صيانة ، ناهيك بأمر يتولى
الامام الاعظم صيانته، ويقوم العلماء على حراسته، وتشرف
الامة على الوفاء به. فاذا الحكومة [illegible] العلماء
يريدون [illegible]

[illegible]

الى آراء الرجال ومبتدعات الفرق، والنفوس ثم تكلف بأن تؤمن بغير ما أنزل الله من تأويلات الفرق وتحريفات أهل الكلام، وأن تعمل بغير ما ورد به الكتاب والسنة من مبتدعات المتصوفة ومخترعات أهل الطرق

اختل أمر المعارف الاسلامية يوم انفصلت رتبة الخلافة عن رتبة الملك، يوم أصبح الامر والنهي [illegible] من أهل الشوكة [illegible] [illegible]

[illegible]

تلك المعارف، وصادف في ذلك الوقت أن تفاقم امر البدع
واشتدت شوكة بعض الطوائف المارقة فاشتغل العلماء
بجدالهم ومجادلتهم فنشأت [illegible] وحدثت مذاهب، واغتنم
الوضاعون من أعداء الاسلام تلك الفرصة فوضعوا من
الاحاديث ما أتى على أصول الاسلام وقواعده فشغلوا أيضا
قسما [illegible] لذلك
كان [illegible]
ما [illegible] الكلام
[illegible] ذلك
الوقت [illegible]
[illegible]

قد اختل اختلالا تناول الوحدة السياسية والوحدة الاخلاقية والوحدة الاسلامية. ولاريب أن تمزق تلك الوحدات يؤدي لامحالة الى تمزيق وحدة المعارف الاسلامية. من أجل ذلك اختل نظام تلك المعارف اختلالا ظهر أثره فيما بعد ظهوراً لايزال يئن منه المسلمون الى اليوم

في الكلام مذاهب. ولأهل السنة آراء ترجع الى ماقاله الاشاعرة. وآراء أخرى ترجع الى ما دونه الماتريدية. وبين الاشاعرة أنفسهم اختلاف كما [illegible] الماتريدية [illegible] ومنشأ ذلك كله [illegible] تلك المعضلات من أنها [illegible] وذكرت [illegible] معرض الجدل. فأي [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الكلام أن [illegible]

ورد عادية الخصوم . . . اذاً فهي سلاح يتغير تبعاً لتغير المهاجمين، ويتبدل لتبدل الطاعنين . أما العقائد فهي ثابتة لاتتغير ولا تؤخذ من علم الكلام، ولا يقبل فيها رأى أهله

ومن هنا ينبغي للامة الاسلامية أن تنبذ من علم الكلام مالا حاجة تدعو اليه اليوم، وتعمل لايجاد طرق جديدة تستطيع بها منازلة الخصوم الجدد من الملحدين والمبشرين ورجال السياسة، فان علم الكلام قد انتهى موضوعه المعلوم من حيث هو، ولا نرى أنه يتناول [illegible] المواضيع التي أصبحت مطاعن يوجهها الخصوم للاسلام [illegible]

ومن الغريب أن القرآن [illegible] الكتاب ولاهل الكتاب عناية لاتقف عند حد بالطعن في العقيدة الاسلامية، حيث أن الكلام وأهل الكلام لم يعيروا تلك المواضيع أي أهمية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible]

تلك المسألة موضع أخذ ورد وانتقاد وطعن بين خصوم أهل الملة، فعلى المجددين لعلم الكلام أن يجعلوها موضع اهتمامهم ومحل عنايتهم فيبحثوها على حسب ما تقضى به الاعتراضات الحديثة لا على حسب ما قضت به الاعتراضات القديمة

يجب أن يكون علم الكلام دفاعيا فحسب فلا يلزم المسلمين أن يعتقدوا ما قرر فيه مهما عظمت منزلة صاحب القول ومكانة المدلي بالرأي لأن العقائد الاسلامية يجب أن [illegible]

وفسد نظام التأليف ولا فان ماتقرر فى باب الاجتهاد من علم أصول الفقه يقضى بأن لايذكر فى المذهب لا القول الذى تؤيده الدليل ويصح نسبته الى الامام مع ملاحظة أن الائمة قد صرحوا بأنه اذا صح الحديث فهو مذهبهم فلذلك يمكن أن تضبط [illegible] الا بالائمة و المسائل [illegible]

ان تم تجديد [illegible]

[illegible]

اليوم من التشريع [illegible]

[illegible]

عبارات المصنفين ومقاصد الواقفين، ان وصل العالم منهم الى
الى تلك الدرجة فقد أصبح فى نظر نفسه ونظر الهيئة العلمية
قائما بوراثة النبوة حاميا حمى الشريعة مبلغا شريعة الله الى
خلقه فأى قوة ستحول هذا الاتجاه بعد ان كرت عليه
القرون ومضت عليه العصور حتى أصبح عادة راسخة وسنة
متبعة؟ وأى رجاء فى قوم هذا شأنهم؟ وأى أمل يرجى منهم
وقد [illegible] سلوك هذا السبيل واتباع ذلك [illegible]
حين [illegible] الحكومات [illegible] البلاد الاسلامية تراهم غير
[illegible] يرتبط بمصالح الامم؟ ومن الغريب [illegible]
يطالبوا الحكومات [illegible] الايام أن تجبر تعليم الدين
فى [illegible] أمرا اجباريا [illegible] من نهار
الاشراف على [illegible] فى مدارس الحكومة
[illegible]
[illegible]

معالم الملة وتأدية الفرائض المطلوبة وترك المحرمات المنهية
ولا هم تولوا أمر التعليم الديني في مدارس الحكومة، ولا هم
أصلحوا شأن المعارف الاسلامية في معاهدهم بل رضوا
بأن يكونوا قوماً فنيين. لاغرض لهم من وراء التعلم والتعليم
[illegible] كلام المؤلفين [illegible] من أغراض المصنفين ورجم
ضمائر الكاتبين صناعة غايتها نفسها، موضوعها البحث في
عبارات المؤلفين، وغايتها فهم تلك العبارات.

أما تطبيق المعارف الاسلامية على أصولها وربط
شؤون الحياة بها وإحياء ما تدعو إليه الشريعة في أمور المعاش
والمعاد فأمر قد نسيه العلماء كما نسيته الحكومات الاسلامية

هذا هو السر فيما نراه اليوم من تأخر [illegible] المسلمين
وانحطاط [illegible] وحدتهم وتفكيك [illegible] كثرة
[illegible]
الا [illegible]
[illegible]
[illegible]

وأوروبا وأفريقيا وجزر المحيط الهندى ولهم فى اكثر ذلك الاغلبية الساحقة، والممالك المتجاورة

فالذى قعد بهم عن مناهضة الامم [illegible] وكافة الخطوب ومنازعة الحوادث [illegible] هم [illegible] كل شىء ويتبرمون فى كل مزاحمة على حين أ[illegible] هم السابقين [illegible]

[illegible]

علماء السلف وعلماء الخلف

كان العلماء فى صدر الملة هم أرباب الفقه فى الدين فكان بيدهم الحكم والافتاء وبيان العقائد ودفع الشبه عنها ونشر العلم ووضع المؤلفات التي تمس اليها حاجة الشعب فسدوا حاجة تطلبتها الامة وشغلوا مركزاً لاغنى للشعوب عنه انظر الى الخلفاء الراشدين وهم يبحثون عن العلماء حينما تنزل نازلة أو تحدث مشكلة يتوقف حلها على الحكم أو الافتاء أو البيان والارشاد ثم انظر الى حاجة الامة الى علماء التابعين والى موقف هؤلاء العلما من الامة وتقديرهم لهذا الموقف واعدادهم نفوسهم للقيام باعبائه وبذلهم النصح لله ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم ثم انظر بعد ذلك الى مكانة أبي حنيفة ومالك وابن أبي ليلى وسفيان والى مرتبة الشافعى وابن حنبل وابن جرير وداوود الظاهرى وأبي يوسف ومحمد وابن القاسم واشهب وسائر علماء هذا العصر أنظر الى تلك المكانات والمراتب والى تقدير أصحابها وتقدير الامة لاصحابها نفعوا الامة

وتفهموا الدولة، واحتضنت بهم الامة والدولة. ومن أراد منهم اعتزال الناس ولزوم بيته قهرته الجماهير على ترك العزلة لشعورها بالحاجة اليه وطرقت عليه بابه لعدم استغنائها عنه

احتاجت اليهم الحكومة فى القضاء والافتاء واحتاجت اليهم الامة فى الهداية والارشاد واحتاجت اليهم الافراد للاستفادة والانتفاع فكانوا روح الجماهير فى عصرهم ولا غنى للناس عما به قوام الحياة، وهو الروح

فخلف من بعدهم خلف غفلوا عن تقدير موقفهم من الامة وتناسوا حاجة الجماهير اليهم فشغلوا نفوسهم بالبحث فيما لا حاجة للجماهير به لانه خارج عن متناول فروع الحياة لديهم

اشتغل فريق بالتصوف والعزلة وفريق آخر بالدقائق والرقائق (كما يقولون) والجماهير لا يهمها كل ما يتعلق بالمباحث الخاصة بتلك الدقائق والرقائق واشتغل فريق باختصار العلوم فى عبارات ضيقة تحتاج الى شرح وبيان فأدى ذلك الى اشتغال فريق آخر بوضع شروح على تلك العبارات

الضيقة وجاءت تلك الشروح غير وافية فاشتغل فريق آخر بوضع تعاليق عليها لتتميم النقص، وهكذا دواليك: نقص يحتاج الى اكمال، واختصار يفتقر الى شرح وبيان، الى أن يطول الشرح لكثرة الحواشي والتعاليق فيحتاج الامر مرة أخرى الى الاختصار ثم الاختصار يحتاج الى بيان، وهكذا ينتهي البيان باختصار، وينتهي الاختصار ببيان، فلا الشرح وقف عند حد معين ولا الاختصار لزم نحوا محدودة. وأضحت عملية الاختصار والشرح هي الشغل الشاغل لهذا الفريق، وفي أثناء هذا التردي والتقهقر فقد العلماء مركزهم في الامة [illegible] الم وصارت تتطلب ارجاعهم الى مكاناتهم السالفة وهم [illegible] لاهون حتى ألجأتها الظروف الى الاستغناء عنهم [illegible] من فروع الحياة التي كانوا مرجعا لهم فيها [illegible] العلماء هم [illegible] وعلى أي تقدير [illegible] الاستغناء الا انه [illegible] الاهتداء والعمل [illegible] الحياة.

تم الجزء الاول ويليه الثاني

فهرست